الفصل الأول

الأوجه العديدة للإسلام والمسلمين

يعد فهم الإسلام والمسلمين محيرًا بالنسبة للكثير. فقادة الإسلام يتحدثون عنه كدين للسلام والعدالة، ولكن أسامة بن لادن وأمثاله من الإرهابيين يذبحون المسلمين وغير المسلمين عالميًا. فقد أشار الرئيس جورج دبليو بوش إلى الإسلام على أنه دين سلام؛ أما المبشر المسيحي فرانكلين جراهام فقد وصف الإسلام بأنه دين شر؛ وساموبل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد ومؤلف كتاب "صراع الحضارات" كتب قائلا: "الإسلام لديه حدود دموية... وهو كذلك من الداخل،" ولكن كما أشار الرئيس باراك أوباما: " لقد أظهر الإسلام بالأقوال والأفعال إمكانية التسامح الديني والمساواة العرقية... يجب أن تقوم شراكة بين الإسلام وأمريكا بناءً على ما يتصف به الدين الإسلامي، وليس بناءً على ما ليس به".

يواجه المسلمون وغير المسلمين على حد سواء- تحديات جديدة في القرن الواحد والعشرين؛ حيث إن قوى العولمة جعلتنا معتمدين بعضنا على بعض سياسيًا، واقتصاديًا وبيئيًا، وخلقت هجرة المسلمين بأعداد كبيرة في القرن العشرين مجتمعات جديدة في أمريكا وأوروبا أثرت إيجابيًا في المجتمعات، ولكن نتج عنها أيضا اضطرابات اجتماعية. ولكن بغض النظر عن مخاوف وآمال المسلمين وغير المسلمين، فإن أحداث ١١ من سبتمبر و"الحرب ضد الإرهاب العالمي" - أشارت إلى تحول كبير في التاريخ العالمي والعلاقات بين مسلمي العالم والغرب.

إن هجمات ١١ من سبتمبر على مركز التجارة العالمي والبنتاجون والأعمال الإرهابية التي تلت ذلك في أوروبا- حطمت حياة الكثير، وصورها البعض على أنها تهديد إسلامي من الناحية الداخلية والخارجية. فتأثير تلك الأحداث في نيويورك وواشنطن، كما في مدريد ولندن- أثارت تساؤلات جديدة حول دين الإسلام وديانة المسلمين.

وفي القرن الواحد والعشرين كان تزايد الإرهاب العالمي وتزايد العداء ضد الأمركة وضد الغرب بصفة عامة، مصحوبًا في أمريكا وبعض البلدان في أوروبا بظهور السياسيين اليمنيين، والمعلقين السياسيين، وشخصيات إعلامية، وقادة دينيين خلطوا بين الإسلام والإرهاب. وقد ساعد هؤلاء على زيادة التعصب ضد الإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا)، مما نتج عنه شك واسع بالمسلمين، وجرائم الكره، والاعتقاد أن الإسلام ذاته، وليس فقط المسلمون المتطرفون يشكلون- تهديدًا عليهم.

إن أحداث ١١ من سبتمبر وُصِفَت بأنها نتيجة الصراع بين الحضارات التي لدى أفرادها مبادئ، وقيم، واهتمامات متعارضة تمامًا. ورأى البعض ذلك على أنه معركة بين الإرهاب العالمي والغرب، ولكن آخرون كثيرون رأوها على أنها صراع بين نظام إسلامي تقليدي ديني شمولي معادٍ للغرب، وبين النظرة الغربية الحديثة الديمقراطية الرأسمالية العلمانية. كما أن النقاد يتهمون الإسلام بتناقضه مع الديمقراطية والمساواة وحقوق الإنسان، وأن هذا هو السبب الخفي لحقيقة أن العديد من البلدان الإسلامية هي مجرد مجتمعات شمولية، تحد من الحريات، ولديها مجتمع مدني ضعيف. وفي الوقت نفسه، يعتقد الكثير من المسلمين أن الحفاظ على قيمهم وتقاليدهم الإسلامية شيء ضروري جدًا؛ لكي ينجحوا في تقوية مجتمعاتهم والحفاظ على الديمقراطية والتطور. فهل الإسلام هو السبب الأساسي للمشكلة أم أنه جزء من الحل؟

هل هناك إسلام واحد أم أكثر من إسلام؟

بينما نتحدث بصفة عامة عن الإسلام فإنه في الحقيقة توجد العديد من الصور والتفسيرات للإسلام. إن صور وحقائق الإسلام والمسلمين كثيرة ومتعددة: دينيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا. إن المسلمين يمثلون الأغلبية في سبع وخمسين دولة، كما يمثلون العديد من الجنسيات، واللغات، والمجموعات العرقية والقبلية.

إن معظم مسلمي العالم، البالغ عددهم ١,٥ مليار، ليسوا من العرب، ولكن من آسيا وأفريقيا؛ حيث يمثل العرب خُمس مسلمي العالم فقط (مع العلم أنه يوجد الكثير من المسيحيين العرب في العديد من البلدان العربية ومازالوا هناك منذ وجود السيد المسيح). إن أكبر المجتمعات الإسلامية تعيش في إندونيسيا، وبنجلاديش، وباكستان، والهند، ونيجيريا أكثر مما يوجد في المملكة العربية السعودية، ومصر، وإيران. كما يعيش ملايين من المسلمين في أوروبا وأمريكا الشمالية، ويمثلون اليوم ثاني وثالث أكبر ديانة على التوالي. ونتيجة؛ لذلك لا توجد المجتمعات الإسلامية الكبرى فقط في داكار، والخرطوم، والقاهرة، ودمشق، والرياض، وطهران، وإسلام آباد، ولكن أيضًا في لندن، وباريس، وروما، وبرلين، ونيويورك، وواشنطن. ولغة المسلمين لا تشمل فقط اللغة العربية، ولكن اللغات الفارسية، والتركية، والأردية، والسواحيلية، والإندونيسية، والصينية بالإضافة إلى الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والدنماركية والإسبانية.

وكحال كل الديانات والمذاهب القوية والمهمة، يحفل الإسلام بتاريخ طويل في كل تلك الثقافات المتنوعة بجانبه الإيجابي والسلبي. ومثل كل الديانات الأخرى يعترف الإسلام بوجود حقيقة عليا ومطلقة. بالنسبة للمسلمين: الله هو الإله الأوحد القوي الرحيم الغفور، وهو الإله الخالق ومالك الكون، وهو الحاكم بين الخلائق يوم القيامة. وهو يدعو البشر للسمو، واتباع طريقه القويم، وأن يحيوا حياة أخلاقية، ويعملوا لإيجاد مجتمع عادل. ولكن مثل الأديان الأخرى لم يكن الإسلام على مر التاريخ فقط- وسيلة للرحمة، والفضيلة، والعفة، ولكن شهد أيضًا عصورًا من استخدامه لأغراض الإرهاب، والظلم والاضطهاد.

تجربة الجانب المظلم:

اهتم القليلون بمعرفة العالم الإسلامي قبل الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. فلم يكن الإسلام والمسلمون مرتبطين، أو بعضهم لهم علاقة ببعض بصفة خاصة. ولكن اليوم الإسلام والمسلمون يساوون عند البعض العبارات اللاذعة من الكراهية التي يقولها دعاة الكراهية المسلمون، مثل أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة، والصراعات بين الشيعة والسنة، والتفجيرات الانتحارية، وقطع الرءوس، وتخريب المساجد، وذبح الرجال والنساء والأطفال الأبرياء في العراق، وباكستان، والهند، والهجمات الإرهابية في أوروبا. أما بعض المبشرين، والمعلقين السياسيين، ورجال السياسة المسيحيين فيرفضون الإسلام باعتباره دينًا للشر والعنف، ويسخرون من النبي محمد على أنه متحرش بالأطفال. فكانت النتيجة النهائية لذلك أن عددًا كبيرًا من الأمريكان يرون الإسلام، وليس فقط المسلمين المتطرفين، على أنهم المشكلة التي تواجه العالم اليوم.

وقد توصل استطلاع للرأي العام أجرته صحيفة الواشنطن بوست وقناة إي بي سي الإخبارية إلى أن تقريبًا ما يعادل نصف الشعب الأمريكي ٤٦% لديه نظرة سلبية عن الإسلام، وهي أعلى بنسبة سبع نقاط في المائة بعد أشهر قليلة من هجمات ١١ سبتمبر[١].

وفي أوروبا تم اختيار الإسلام بأغلبية ساحقة على أنه الدين الأكثر ميلا للعنف، بنسب تتراوح من ٦٣% في بريطانيا، إلى ٨٧% في فرنسا، و٨٨% في هولندا[٢]. فهل من العجيب أن يكون الإسلام والمسلمون بشكل عام، وليس فقط

الأقلية المتطرفة، هم محور فوبيا الإسلام وضحايا الإساءة للمسلمين؟

"الإسلاموفوبيا" هو مصطلح جديد لظاهرة واسعة الانتشار اليوم. فجميعنا يعرف جيدًا مصطلحات مثل "معاداة السامية" أو "العنصرية"، ولكن لم يكن هناك مصطلح مشابه لوصف العداء، والتحيز، والتفرقة الموجهة للإسلام ومسلمي العالم المليار ونصف. ففي عام ١٩٩٧، قام مجموعة من الخبراء المتخصصين في العرقية والتنوع الثقافي في مؤسسة الراني ميدي تراست Runnymede Trust بتأليف مصطلح "إسلاموفوبيا" لوصف ما رأوه من تحيز بسبب المظهر الخارجي "المختلف" للمسلمين، وكذلك معتقداتهم الدينية والثقافية. ويقوم هذا التحيز (كغيره من أشكال التحيز الجماعي) على الجهل والخوف من المجهول، والذي ينتشر بشكل كبير في العالم غير الإسلامي. وقد تحدث كوفي عنان أمام المجتمع الدولي عن هذه المشكلة في مؤتمر الأمم المتحدة لعام ٢٠٠٤، "مواجهة الإسلاموفوبيا: تعليم من أجل التسامح والتفاهم"، قائلا:

"عندما يجبر العالم على ابتكار مصطلح جديد ليضع في اعتباره التعصب الأعمى المتزايد في الانتشار- فهذا تطور محزن ومزعج؛ لأن ذلك هو الحال مع "الإسلاموفوبيا"... فهناك حاجة إلى نسيان الاراء الشائعة التي أصبحت محفورة في الكثير من العقول وفي كثير من وسائل الإعلام. فالإسلام غالبًا ما يُرى على أنه قالب واحد... والمسلمون ينظر إليهم على أنهم نقيض الغرب... هناك ضغوط حقيقية ناجمة عن العيش مع أشخاص ذوي معتقدات وثقافات مختلفة عن ثقافة ومعتقدات المواطن... ولكن هذا لا يبرر التشويه المتعمد، أو استخدام الخوف المتعمد لأغراض سياسية. هذا فقط يعمق حدة الشك والاغتراب"[٣].

ولكن ماذا نعرف نحن عن المواطنين المسلمين في أمريكا؟ ربما تدهشك الكثير من الحقائق.

النجاح في أمريكا:

يقطن أمريكا طائفة متنوعة من المسلمين تعتبر واحدة من أكثر المجتمعات تنوعًا في العالم؛ حيث تقول داليا مجاهد المدير التنفيذي لمركز جالوب لدراسات الإسلام: "إن المسلمين يمثلون نموذجًا مصغرًا من الشعب الأمريكي... فهم المجتمع الديني الوحيد الذي بلا عرق غالب"[٤]. إن المسلمين هم أمريكيون جاءوا من ٦٨ دولة مختلفة، بالإضافة إلى الأمريكيين من أصل أفريقي والمعتنقين للإسلام من خلفيات عرقية ودينية مختلفة. وطبقًا لتقرير مركز جالوب لعام ٢٠٠٩ الذي كان عنوانه (المسلمون الأمريكيون: صورة وطنية)، فإن ٢٨% من الأمريكيين المسلمين يعرفون أنفسهم على أنهم من "البيض"؛ و ١٨% يقولون: إنهم من الآسيويين، بينما يصنف ١٨% أنفسهم على أنهم "آخرون"، وهم ربما يعكسون هويات من أكثر من جماعة. أما ١% فقط فيقولون: إنهم من أصل إسباني، في حين أن هؤلاء الذين يعرفون أنفسهم بأنهم أمريكيون من أصل أفريقي يشكلون ٣٥%.

وهذه التشكيلة الواسعة من المسلمين في أمريكا، بعضهم جاء بحثًا عن الحرية الدينية والسياسية، والرخاء الاقتصادي، أو للتعليم، والآخرون الذين ينحدرون من العبيد الذين تشكلوا عن طريق النضال من أجل الحقوق المدنية وقضايا العدالة الاقتصادية والسياسية، يمثلون أحد أكبر الجماعات الدينية المختلفة، اقتصاديًا، وعرقيًا، وسياسيًا. وذلك كما أشارت طيبة تايلور مؤسسة ورئيسة التحرير في مجلة عزيزة إلى أن تنوع المسلمين "يعطينا مدخلا عدد مدهش من الأفكار والحلول، وبإدخال مرونة الثقافة الإسلامية على مرونة الثقافة الأمريكية، يمكننا، ليس فقط من احترام التنوع، ولكن أيضًا من استخدام هذا التنوع للتنقيب عن

مواهبنا المختلفة"[٥].

إن معظم المسلمين في أمريكا من الشباب وصغار السن؛ حيث إن حجم عينة المسلمين في سن السادسة والخمسين أو أكبر في دراسة جالوب كان صغيرًا جدًا ليذكر في التقرير، ولكنهم مقارنة بالجماعات الدينية الرئيسية يمثلون العدد الأكبر من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ إلى ٢٩ (بنسبة ٣٦% مقابل ١٨% في تعداد السكان العام في الولايات المتحدة)، وكانت نسبتهم أيضًا أعلى من نسبة الأشخاص الذين أعمارهم من الثلاثين إلى الرابعة والأربعين (بنسبة ٣٧% مقابل ٢٦% من الأمريكان ككل). ويعتقد السيد جهاد صالح وليامز، منسق برنامج رابطة العاملين المسلمين بالكونجرس، أنه عندما يستثمر المسلمون في شبابهم، "فإنهم يستثمرون للجيل القادم من القادة الأمريكيين الذين سينشرون قيم التعددية والديمقراطية، وصورة أمريكا عالميًا كأرض للفرص يعتمد على الظهور الناجح لهذه العملية"[٦].

ويعتبر التعليم أولوية بالنسبة للعديد من المسلمين، والذين يعدون ثاني أكبر مجتمع ديني متعلم في الولايات المتحدة بعد اليهود. فأربعون بالمائة من المسلمين حاصلون على شهادة جامعية أو أكثر، مقارنة بنسبة ٢٩% من الأمريكان ككل[٧]. فنسبة النساء المسلمات في أمريكا (على عكس مثيلاتهن من اليهود إحصائيًا) اللاتي يحصلن على شهادات جامعية أو دراسات عليا هي تقريبًا نفس نسبة الرجال المسلمين. كما يحصلن على دخل شهري يقارب ما يحصل عليه الرجال، وذلك بنسبة أعلى مقارنة بالنساء والرجال في مجموعات دينية أخرى[٨].

ويعكس المسلمون التنوع الاقتصادي والاجتماعي الموجود في المجتمع الأمريكي، فالمسلمون الآسيويون والبيض هم أفضل الجماعات العرقية تعليميًا في الولايات المتحدة بصفة عامة وبين المسلمين خاصة. والمسلمون الأمريكيون من أصل أفريقي (مثل نظرائهم من غير المسلمين في المجموعة العرقية نفسها) هم أقل احتمالية أن يحملوا شهادات جامعية من الآسيويين والبيض وأي سلالات "أخرى" من الأمريكيين المسلمين. والمسلمون في أمريكا مثل عامة السكان، يعكسون تفاوتًا في الدخل باختلاف الأعراق. فالمسلمون الآسيويون الأمريكيون يحققون دخلا عاليًا، في حين يحقق المسلمون الأمريكيون من أصل أفريقي نسبة دخل أقل[٩].

ولكن على مر العقود القليلة الماضية، أصبح الغالبية العظمى من الأمريكيين المسلمين مندمجين مع المجتمع الأمريكي سياسيًا واقتصاديًا بشكل متزايد. ويمثل المسلمون باقي السكان الأمريكيين من حيث العمل. فهم يشغلون رجالًا ونساءً وظائف مثل: (أطباء، ومحامين، ومهندسين، ومعلمين ومدراء تنفيذيين لشركات، وأصحاب أعمال صغيرة، أو عمال). ففي الحقيقة يقول ٧٠% من الأمريكيين المسلمين بأن لديهم وظيفة (مدفوعة أو غير مدفوعة الأجر) مقارنة بـ ٦٤% من الأمريكيين ككل. غير أن نسبة كبيرة منهم (٢٤%) يعملون لحسابهم. ولكن الأغلبية كما هو واضح ضمن المسلمين الأمريكيين غير العاملين؛ حيث إن ٣١% هم طلاب بدوام كامل مقارنة بنسبة ١٠% من السكان عامة[١٠].

وإذا نظرنا إلى المسلمين حول العالم يتضح لنا المميزات التي يتمتع بها الأمريكيون المسلمون؛ حيث يستطيعون أن يجدوا عملا بشكل أفضل. على عكس الـ ٧٠% من الأمريكيين المسلمين الذين يقرون بأن لديهم وظيفة، فإن صور المسلمين في أوروبا تختلف جذريًا؛ حيث إن ٣٨% في الولايات المتحدة، و٤٥% في فرنسا، و ٥٣% في ألمانيا- بلا عمل. ففي الدراسة التي ذكرها جالوب عن البلدان الإسلامية تظهر "أن الحصول على عمل يتراوح من النسبة الأقل ٣١% في باكستان إلى ٥٩% في إندونيسيا"[١١]. وعند الأمريكيين المسلمين تعكس مناصبهم في وظائف مرموقة ما يقوله غالبية الأمريكيين المسلمين ٧١% الذين

يوافقون على أن الأشخاص الذين يريدون التقدم في أمريكا يمكنهم النجاح فقط إذا كانوا مستعدين للعمل بجدية. هذه النسبة تعتبر أعلى من مثيلتها في الشعب الأمريكي ككل، أما الأمريكيون من أصل أفريقي فيتأثرون بالتفرقة العنصرية وبالأحوال الاقتصادية الفقيرة، ومع ذلك فهم أكثر واقعية من أغلب المهاجرين المسلمين[١١].

إن موقع المسلمين المميز في أمريكا مقارنة بالمسلمين في العالم يعكس رضاهم عن حياتهم؛ حيث يقر ٤١% أنهم ناجحون بشدة، والذي يماثل الأمريكيين عمومًا وأعلى بكثير من المسلمين في كل البلدان العربية والإسلامية ماعدا السعودية وألمانيا. ومن جهة أخرى فإن ٥٦% يقرون أنهم "يكافحون"، مقابل ٥٠% من الأمريكان عامة[١٢]. بينما قام المسلمون بتقدم ملحوظ في أمريكا منذ هجمات ١١ من سبتمبر وجد العديدون أنفسهم تحت فحص شديد بدءًا من التشخيص في المطارات، والاستجوابات، والتنصت على المحادثات، إلى المراقبة الشديدة في المساجد والمنازل. وأكثر من نصف هؤلاء تمت معاينتهم من قبل مركز بيو للأبحاث الذي يقول: إنه من الصعب أن تكون مسلمًا منذ ذلك التاريخ؛ حيث يعتقدون أنهم مراقبون بصفة دائمة وخاصة من الحكومة[١٤].

تعكس العديد من المؤشرات شعور المسلمين بإحساس من عدم الارتياح؛ حيث أقر مجموعة من الأمريكيين المسلمين أنهم يشعرون أنهم أقل ارتياحًا وأقل احترامًا من هؤلاء المنتمين إلى جماعات دينية أخرى؛ لذلك فإنهم أقل احتمالا للشعور بالسعادة أو الفرح وأكثر احتمالًا للشعور بالقلق والغضب من المدافعين في أغلب الجماعات الأخرى. وتظهر علامات الاغتراب عن المجتمع في استفتاء جالوب مثل تشاؤمهم بشكل كبير بالنسبة لمستقبل مجتمعاتهم، وانخفاض مشاركتهم في العمل التطوعي أكثر من معظم الجماعات الأخرى، وانخفاض نسبة المسجلين في الانتخابات، وخصوصًا بين الشباب؛ حيث إن نسبة المسجلين في الانتخابات ٦٤% فقط، وهي أقل نسبة بين الجماعات المتدينة، وتنخفض النسبة أكثر بين الشباب؛ حيث تصل إلى ٥١%. "ما زال هناك شعور عند الأمريكيين المسلمين بأنهم مستبعدون من الاتجاه العام"، أشار بذلك أحمد يونس المحلل الأول في الجالوب، "ويظهر ذلك بحدة أكبر بين الشباب"[١٥].

" إن نقص المشاركة السياسية والحضور السياسي غَذَّى شعورًا بالإبعاد، ولكن هناك بعض المؤشرات عن تغير ذلك ببطء؛ فالمسلمون الآن أصبحوا أكثر ظهورًا في الحياة الأمريكية السياسية؛ حيث يعمل مسلمان اليوم في الكونجرس الأمريكي، وآخرون في السياسات المحلية. وأصبحت المنظمات الإسلامية أكثر ظهورًا في تأييد الكونجرس.

وينعكس تنوع المسلمين الأمريكيين بوضوح في آرائهم السياسية؛ فهم أكثر الجماعات الدينية الموزعة بالتساوي على الشريحة السياسية في المجتمع؛ حيث يزعم ٣٨% أنهم معتدلون، والآخرون مقسمون بالتساوي في كلا الجانبين (٢٩% يساريون، و٢٥% من المحافظين). فهم يماثلون المذهب اليهودي إلى أقصى درجة والمورمون إلى أقل حد.

بالرغم من تنوعهم السياسي، وحقيقة أن أقل من نصف الأمريكيين المسلمين يشيرون إلى أنهم ديمقراطيون، فإن المسلمين بأغلبية ساحقة (نسبة واحد إلى ثمانية، بما فيهم الرجال والنساء)، صوتوا لصالح أوباما بدلًا من ماكين في الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨، وهي أعلى نسبة تم مسحها من جميع الطوائف الدينية[١٦].

في مشروع مابس/ زوجبي الدولي لاقتراع الأمريكيين المسلمين، قال ٨٧% :

إن المسلمين يجب أن يدعموا ماليًا المرشحين السياسيين الأكفاء غير المسلمين. وعلى عكس الآراء التقليدية، ذكر ٤٤% من المسلمين أن السياسة الداخلية تعد عاملاً أكثر أهمية في التأثير على أصواتهم، وذلك في مقابل ٣٤% الذين فضلوا السياسة الخارجية[٣٧].

التحديات العديدة "للنجاح في أمريكا":

وإذا تمعنا في الكرة السحرية للقرن الواحد والعشرين، فإن مستقبل المسلمين في أمريكا يبدو مبشرًا جدًا، نظرًا لشبابهم، وملفاتهم التعليمية والوظيفية، وازدياد عددهم، مما يجعلهم قوة سياسية محتملة. ولكن يخف هذا التفاؤل كما سنرى في مناقشة هذا الجزء؛ لأنه عندما سئل الأمريكيون في استفتاء جالوب لعام ٢٠٠٥ ماذا يعجبهم في الإسلام؟ أجاب ٥٧% بـ "لا شيء" أو "لا أعرف"؛ مما يفهمنا أن العديد من المواقف السلبية تأثرت بهجمات ١١ من سبتمبر وتهديد الإرهاب العالمي. كما ملئت الفراغات في معرفتنا بالإسلام والمسلمين في العالم بعد ١١ من سبتمبر، غالبًا بمعلومات مثيرة من جانب واحد، تقودنا إلى نبذ هؤلاء "الغرباء" والخوف منهم.

أما الإعلام فلا يهتم فقط بالأخبار القابلة للنشر، ولكن بالأخبار التي ستزيد المبيعات والربح. إن طريقتهم في قول الحقيقة القاسية تفضل العناوين الرئيسية للأحداث الساخنة، والتي تؤكد بشكل غير متناسب على الصراع والعنف؛ حيث إن أصوات المحافظين الجدد، والتي كانت مسيطرة خلال إدارة الرئيس جورج بوش، رأت الحرب ضد الإرهاب العالمي فرصة لتنفيذ اعتقادهم بأن مصير أمريكا "كقائد عالمي" هو خلق دولة أمريكية جديدة، لا ينفصم جدول أعمالها عن جدول المسيحيين اليهود المتشددين، وهي سياسة تحويل الشرق الأوسط، فكانت النتيجة النهائية هو ميل لرؤية الإسلام ومسلمي العالم البليون ونصف، بالإضافة إلى الستة أو الثمانية ملايين مسلم في أمريكا بعين التشدد الديني والإرهاب، سامحين للكلام المسموم والتهديدات من قلة من الإرهابيين أن تلون وتطمس فهمنا عن أغلبية المسلمين عامة.

ولذلك فإن أي مناقشة عن مستقبل الإسلام عليها أن تنظر مباشرة إلى الأصوات العديدة السلبية التي يجب أن تفحص ولا تؤخذ على ظاهرها، وإلا فمن أين تأتي الآراء الشائعة عن الإسلام؟ وماذا قال العديد من النقاد السياسيين، وصناع السياسة، ودعاة المسيحية؟ وكيف صنعت صور الإسلام والمسلمين التي رسموها فارقًا، ولماذا تلك الصور خاطئة وذات نتيجة عكسية؟

الإسلام والانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٨:

إن اغتراب المسلمين يمكن أن يُفهم بوضوح كلما شاهدنا العديد من التعليقات التي تعبر عن فوبيا الإسلام أثناء الحملة الرئاسية لعام ٢٠٠٨. فلقد كان من الصعب إحصاء عدد المرات التي ردد فيها باراك أوباما عبارته "أنا لست مسلمًا" "أنا لست مسلمًا". "أنا لست مسلمًا"؛ حيث شعر أوباما وحملته الانتخابية بضرورة قول هذه العبارة ليؤكدوا لجمهور الناخبين الأمريكي أن المرشح الديمقراطي للرئاسة ليس مسلمًا. وبالرغم من أن باراك أوباما يعلن عن مسيحيته، ويلتزم بها، فإن اسمه الإسلامي (بسبب والده الأفريقي المسلم غير الملتزم) وحقيقة أنه عاش في إندونيسيا وارتياده مدرسة إسلامية زاد من التكهنات بكونه مسلمًا. المقال الذي نشرته المجلة المسماة تهكميًا بالإن سايت أو البصيرة، والتي تملكها الشركة نفسها مثل الواشنطن تايمز، قالت: إن أوباما أشار في كتابيه (أحلام من والدي)، (وجراة الأمل) إلى أنه قضى عامين في مدرسة إسلامية وعامين آخرين في مدرسة

كاثوليكية حينما كان يعيش في إندونيسيا من سن السادسة وحتى العاشرة. ومع ذلك، وبالرغم من تأكيداته الشخصية وحملته التي تزعم أن هذه القصة كانت "مروعة بشكل غير مسئول"- ظلت الشائعات والاتهامات قائمة[١٨].

إن حساسية حملة أوباما، وبشكل مفرط حول هذا الموضوع، كانت، واضحة. فردُّه: "أنا لست الآن، ولم ولن أكون أبدًا مسلمًا" بدا مثل الأقوال الحالية التي تنكر الحرب الباردة الشيوعية؛ فقد لاحظ ذلك بعض المسلمين وتفهموه نظرًا للحساسيات السياسية، ومع ذلك تعجبوا: لماذا لم يقل أوباما أبدًا: "أنا لست مسلمًا، ولكن ما الخطأ في أن أكون مسلمًا؟".

فلقد كان المرشح أوباما حريصًا على ألا يزور مسجدًا، أو أن تظهر صورته مع مسلمين. وفي ديربورن كان العاملون النشطاء بالحملة حريصين على إخفاء صورة امرأتين مسلمتين ترتديان الحجاب وتظهران مع المرشح الديمقراطي في نفس الصورة. وبالرغم من الحقائق وكل البيانات المؤيدة لها، فإن ١٢% من الأمريكيين المدفوعين بالمواقع الإلكترونية عن فوبيا الإسلام، ومدونات الإنترنت المعادية لأوباما، تشبثوا بالاعتقاد بأن أوباما كان يخفي هويته الحقيقية. واستمر النقاد بفحص خلفيته العائلية، متنازعين ما إذا كان والد أوباما الكيني "الغائب" مسلمًا ملتزمًا أم لا. وعما إذا كان أوباما "فعليًا" مسلمًا أم لا، وتسميته مدرسته الابتدائية "المدرسة الإندونيسية" بنبرة متعمدة من التشدد.

واستمر هذا الموضوع خلال الحملة. أما كولين باول فقد تكلم في تأييده لباراك أوباما معربًا عن قلقه من الأعضاء القدامى من حزبه "الجمهوري" قائلا:

أنا قلق أيضًا، ليس مما قاله السيناتور ماكين، ولكن بما يقوله أعضاء الحزب، وسماحهم بقول أشياء مثل: " أنتم تعرفون أن السيد أوباما مسلم". "حسنًا فالإجابة الصحيحة هي أنه ليس مسلمًا لكن مسيحيًا. لقد كان دائمًا مسيحيًا. والإجابة الأكثر صحة: حتى وإن كان مسلمًا؟ هل هناك خطأ في أن يكون مسلمًا في هذه الدولة؟ الرد هو: لا ليس في أمريكا. هل هناك أي خطأ في أن يعتقد طفل أمريكي مسلم أو طفلة في السابعة من عمره- أنه قد يصبح رئيسًا؟ نعم، لقد سمعت الأعضاء القدامى من حزبي يلقون هذا الاقتراح، وهو: "إنه مسلم، وربما يكون له علاقة بـ "الإرهابيين". وهذه ليست الطريقة التي يجب أن تتم في أمريكا[١٩].

إخماد أصوات غالبية المسلمين:

إن أسباب حملة أوباما للحذر الشديد والحساسية المفرطة حول النتائج السياسية لأي ارتباط مع المسلمين- ظهرت في المؤتمر الديمقراطي. وذلك حينما دعيت الدكتورة إنجريد ماتسون، وهي كندية اعتنقت الإسلام، وباحثة مشهورة في كلية هارتفورد للشريعة بولاية كونيتيكيت؛ لتمثل المجتمع الإسلامي في تأدية صلاة هي الأولى من نوعها، تجمع بين الأديان في مؤتمر الترشيحات الديمقراطي. وهي أيضًا رئيسة المجتمع الإسلامي بأمريكا الشمالية، وهي منظمة أمريكية إسلامية كبرى كانت موجودة منذ العديد من العقود، تعمل في تنظيم المجتمع، والتعليم، وتصل إلى المسلمين والمسيحيين واليهود. فزعماء منظمة المجتمع الإسلامي بأمريكا الشمالية التقوا مع الدكتورة ماتسون بالمسئولين الحكوميين، مثل: نائب وزير الدفاع جوردون إنجلاند ووكيلي وزارة الولاية نيك بيرنز وكارين هيوز الذين أثنوا جميعهم على أعمال المنظمة.

ومع ذلك ففرانك جافني الناقد الصريح للزعماء المسلمين والمنظمات الإسلامية، الذي يطول سجل مقالاته الافتتاحية في الواشنطن تايمز حول الاتهامات للمسلمين ويقصر حول الأدلة الداعمة، أكد دون أي إثبات أو دليل أن منظمة المجتمع الإسلامي لأمريكا الشمالية "أنشأتها أصلا جمعية الطلبة المسلمين الذين

تمولهم السعودية"، وهي "واجهة لتنظيم الإخوان المسلمين"[٢٠]. مع العلم أنه لم تتهم أيٌّ من هذه المنظمات في أي جرائم مزعومة أو دعم للإرهاب، ولم يثبت أي دليل عن تورطهم مع أي عمل إرهابي.

وحينما تساءلنا: "لماذا تسمح حملة أوباما لنفسها أن توضع في مثل هذه المجموعة"

- استغل جافني هذه المخاوف المشروعة عن الإرهاب والأمن القومي، مستخدمًا اتهامات باطلة لوصم وإدانة المنظمات الإسلامية والمسلمين المعتدلين.

مما يذكرنا هذا الاضطهاد بعهد مكارثي؛ حيث يرى بعض المسلمين في أمريكا أنه يعتبر انتحارًا مهنيًا إذا كان لديهم أي اتصال بأي قيادات أو منظمات إسلامية كبرى (على عكس اليهود الأمريكيين الذين يرتبطون بمنظمات يهودية كبرى مثل المنظمة الصهيونية الأمريكية، واللجنة الأمريكية اليهودية، أو جماعة مؤيدي إسرائيل، ولجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية)، أو إذا عارضوا السياسات أو الأفعال غير القانونية أو المشكوك فيها في إسرائيل/فلسطين. إن فريقًا من وسائل الإعلام من المحافظين الجدد مثل (الويكلي ستاندرد، ونيويورك صن بالإضافة إلى واشنطن تايمز)، والمواقع ذات الصلة مثل (كامبس واتش، وجهاد واتش، وفرونت بيج) ضافروا جهودهم لتشويه سمعة الدكتورة ماتسون ومنظمة المجتمع الإسلامي لأمريكا الشمالية. إنهم يكررون اتهامات وادعاءات لا أساس لها من الصحة، ويستشهدون باقتباسات خارج السياق لخلق "حقائق ثابتة". فهم يدعمون ويؤيدون اتهامات بعضهم لبعض عن طريق إعادة الاتهامات نفسها، الموضوعات والمقالات نفسها؛ ليجعلوها تبدو وكأن عددًا كبيرًا من الناس يكتشفون تهديدات جديدة باستمرار. وليس المسلمون فقط ولكن السياسيون والصحفيون والأكاديميون من غير المسلمين الذين يتكلمون ضد تعصبهم ومعلوماتهم المضللة- يتم استهدافهم ومهاجمتهم على أنهم غير وطنيين، ومدافعون عن معاداة السامية لصالح الإسلام والانتحاريين.

إن هدف هؤلاء الأفراد والمنظمات المعادين للإسلام هو تشويه المنظمات الإسلامية واستمرار إضعافها وحرمانها من حقوقها وتهميش التمثيل الإسلامي في السياسة، والحكم، والمنظمات الأمريكية الكبرى. للتوضيح علينا فقط أن ننظر إلى حالة أول منسق إسلامي لحملة أوباما، مازن أصباحي، الذي استقال بعد أسبوع واحد من وظيفته؛ حيث تمت مهاجمته بسبب عمله في مجلس إدارة (الوقف الإسلامي لأمريكا الشمالية "نايت"). جافني وتبعه آخرون، وصفوا المنظمة، بدون أي أدلة أيضًا - بأنها "أداة قوية في حملة المسلمين لتجذير والسيطرة على المجتمع الإسلامي في أمريكا"[٢١]. إن التكتيكات المستخدمة لتشويه سمعة المسلمين ليست تهديدًا للأفراد الأمريكيين والأوروبيين فقط، ولكن للمبادئ والقيم الفعلية التي نعتز بها، وخاصة المساواة، والتسامح، والحريات المدنية.

إن محرري الأعمدة المحافظين، بعضهم من أكثر الكتاب رواجًا أو مضيفون مشهورون في الحوارات التلفزيونية أو الإذاعية، ولهم جمهور عريض، استعملوا باستمرار ألفاظ الكراهية والذم الشديد الموجه، ليس فقط للمتشددين من المسلمين، ولكن للإسلام والمسلمين عمومًا؛ حيث نصحت آن كولتر: "يجب أن نغزو بلادهم، ونقتل زعماءهم، ونحولهم إلى المسيحية"[٢٢].

ويل كومينز (اسم مستعار) علق: "هل قلب الإسلام الأسود، وليس وجهه هو ما ينشده ملايين المسلمين"[٢٣]. ووفقًا لمايكل سافدج: "هؤلاء الناس [العرب والمسلمون] يحتاجون إلى اعتناق المسيحية بالإكراه... وهذا هو الشيء الوحيد الذي من الممكن أن يجعلهم بشرًا[٢٤]". بعد عدة سنوات، في ٢٩ من أكتوبر، ٢٠٠٧ في بث إذاعي لبرنامجه الواسع الانتشار المذاع على ثلاثمائة محطة

إذاعية، تشدق قائلا:

" أنا لن أجعل زوجتي تلبس الحجاب. ولن أجعل ابنتي تلبس البرقع... ولن أنزل على أربع لأصلي لمكة... أي نوع من الأديان ذلك؟... كتاب من الكراهية... يمكنك أخذ مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية "كير" وتلقيهم خارج بلدي... بدون إجراءات قضائية... تستطيع أخذ إجراءاتك القضائية وتنصرف بها"[٢٥].

ومن ثم قام سافدج برفع دعوى على الـ "كير" (مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية)، وهي منظمة الحقوق المدنية للمسلمين. والتي قام فيها باتهام المجلس بإساءة استخدام مقاطع صوتية من برنامجه (حيث قام المجلس بإعادة بث ما قاله بعد أربع دقائق فقط من برنامجه على موقعه على الإنترنت ليبين استخدامه لألفاظ معادية للمسلمين) كجزء من حملة لمقاطعة برنامجه اليومي ذي الثلاث ساعات، ثم قام بتعديل هذه الدعوى لتتضمن اتهامات بأن المجموعة "لجأت إلى إسكات المعارضين للإرهاب من خلال الابتزاز الاقتصادي، والدعاوى القضائية المكلفة ولكن التافهة والتهديدات بالدعاوى القضائية وإساءة استخدام النظام القضائي." كما أن الدعوى القضائية المعدلة دعت المجلس بأنه "وسيلة سياسية للإرهاب العالمي، حتى إنها ربطت المجموعة بمساندة تنظيم القاعدة"[٢٦]- قامت مقاطعة كاليفورنيا الشمالية "برفض الدعوى قائلة بأن استخدام المجلس للمقاطع للتعقيب والنقد كانت مثالًا نموذجيًا للاستخدام المعتدل"[٢٧].

جون ماكين والمتشددون المسيحيون الصهاينة:

من ضمن أكثر المتعصبين لفوبيا الإسلام القادة الأمريكيون من المسيحيين الصهاينة. ففي الحملة الرئاسية لعام ٢٠٠٨، قادت رغبة المرشح الجمهوري جون ماكين في أن يؤيد نفسه باليمين المسيحي (المتدينين من الجناح اليميني)، الذين رغب بشدة في أصواتهم، إلى جمع صور للكنائس الضخمة والمبشرين المسيحيين في مشاهد مقسمة بشدة.

تلقى ماكين التأييد من رود بارسلي وجون هيجي، والمسيحيين اليهود المشهورين؛ فهم يعتقدون أن تأسيس دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ وعودة اليهود إلى الأرض المقدسة هي شرط أساسي للمجيء الثاني للمسيح، المذكور في نبوءات الكتاب المقدس مثل "ليكن لاعنوك [إسرائيل] ملعونين ومباركوك مباركين" [التكوين ٢٧:٢٩]. إن بارسلي وهيجي مثل جيري فالويل وبات روبرتسون زعماء اليمين المسيحي في الثمانينيات والتسعينيات، الذين أخذوا موقفًا يهوديًا متشددًا، ورحب بهم الزعماء الإسرائيليون بدءًا من مناحم بيجن، إلى آريل شارون وبنيامين نتنياهو.

رود بارسلي القائد لاثني عشر ألفًا من أعضاء الكنيسة الضخمة، رحب بجون ماكين كمستشاره الروحي ومؤيده القوي في الانتخابات الأولية في أوهايو، وخصص فصلا كاملا في كتابه عام ٢٠٠٥: "لا صمت بعد اليوم" إلى التحذير من "حرب بين الحضارتين: المسيحية والإسلامية". وأدان بارسلي "اليأس الروحي" للمتحررين المدنيين الأمريكيين الذين ينادون بفصل الكنيسة عن السلطة، وعرَّف الإسلام على أنه "دين معادٍ للمسيح" قائم على "التضليل". وأن "النبي محمدًا" وفقًا لبارسلي "تلقى الوحي من الجن وليس من الإله الحقيقي". وقال بارسلي: "الحقيقة أن أمريكا قامت جزئيًا بنية أن ترى هذا الدين الزائف محطمًا، وأعتقد أن أحدث ١١ من سبتمبر كانت دعوة البداية لحمل السلاح، ولا نستطيع تجاهلها أكثر من ذلك"، وحذرنا من أننا "ليس لدينا الآن أي خيار؛ فإن الوقت قد حان، وربما نكون قد خسرنا المعركة بالفعل"[٢٨].

بالنسبة لبارسلي ليس هناك فرق بين المتشددين المسلمين العنيفين والمسلمين عمومًا. فهو يعتقد أن الإسلام >شجع< هجمات ١١ من سبتمبر على أمريكا التي >اعتبرت نفسها على مر التاريخ حصنًا ضد الإسلام<. ويحثنا أن نعتقد أن الإسلام هو "دين عازم تمامًا على غزو العالم"[٢٩].

إن القس جون هيجي، المؤيد القوي لماكين، هو مبشر مسيحي مشهور، وهو أيضًا مسيحي يهودي، يذاع له على التلفاز والراديو برامج في أكثر من ١٩٠ دولة حول العالم. في فبراير عام ٢٠٠٦، قام هو وأربعمائة قائد مسيحي ويهودي بتشكيل منظمة "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل"، وهي منظمة تخاطب الكونجرس فيما يتعلق بدفاع الإنجيل عن إسرائيل. وحذر هيجي أتباعه:

"لقد أتى الجهاد إلى أمريكا، إذا خسرنا الحرب ضد فاشية الإسلام، سيغير ذلك العالم الذي نعرفه... إنهم هنا... ينتظرون للرد علينا كإرهاب منظم ضد هذه الأمة. إنها حرب بين حضارة الموت وحضارة الحياة، بين الحرية والبحث عن السعادة، والطوائف المتشددة التي تضم حوالي ٢٠٠ مليون مسلم، الذين يعتقدون أنهم مأمورون من الله بقتل المسيحيين واليهود، إن أزمتنا هي أن نصف أمريكا لا يعلم أن الحرب قد بدأت، وأن هذه هي الحرب الدينية"[٣٠].

عندما أخبر ماكين عن عبارات هيجي المتطرفة عن الإسلام، رفض في البداية أن يبتعد عن القس. ولكن حدث ذلك بعد أن اكتشف تعليقات هيجي السابقة المعادية للكاثوليكية، التي زعم فيها أن أدولف هتلر كان قائمًا فقط على عمل "الكنيسة الرومانية" التي أسماها >عاهرة بابل الكبرى<، عندها فقط قطع ماكين صلته بهيجي كلية بالرغم من أن مستشاره المقرب السيناتور جوزيف ليبرمان لم يفعل ذلك[٣١].

فلم يبد العديدون في الحزب الجمهوري استياءهم من الحملة الهجومية على اسم أوباما "المسلم" واستخدام الشائعات القائلة بأنه في الحقيقة مسلم لتشويه سمعته. الاستثناء الوحيد الظاهر والصريح هو كولين باول الذي لوحظ أنه في فترة تأييده لأوباما كان ناقدًا لبعض الأعضاء القدامى من الحزب الذين قالوا: إن أوباما مسلم، وإنه ربما يكون له علاقة بالإرهابيين.

كان أكثر جزء مقنع في ملاحظات باول آتيًا من القصة التي أخبرها، وتوضح إنسانية الأمريكيين المسلمين، والتي لا تظهر غالبًا في وسائل الإعلام:

"يراودني شعور قوي تجاه هذه النقطة بسبب مقال مصور رأيته في مجلة عن الجنود في العراق وأفغانستان. وآخر صورة في المقال كانت لأم في مقابر أرلنجتون، كانت واضعة رأسها على شاهد قبر ابنها. وكما ركزت الصورة يمكنك رؤية الكتابة على الشاهد، التي أعطت جوائزها - النيشان، والنجمة البرونزية – وذكر أنه مات في العراق، وتاريخ ميلاده ووفاته. فلقد كان عمره عشرين عامًا فقط. وعند أعلى الشاهد، لم يكن هناك صليب مسيحي، أو نجمة داوود اليهودية، بل كان عليها الهلال والنجمة الخاصتين بالديانة الإسلامية، كان اسمه كريم رشاد سلطان خان، وكان أمريكيًا، وُلد في نيوجيرسي، كان عمره ١٤ عامًا وقت أحداث ١١ من سبتمبر، وظل منتظرًا ريثما [يستطيع] أن يذهب لخدمة وطنه، وأعطى حياته لذلك. والآن يجب أن نتوقف عن مناقضة أنفسنا بهذا الشكل، فجون ماكين نزيه كأي شخص آخر أعرفه، ولكن ما يقلقني حقيقة أنه داخل الحزب نفسه لدينا هذا النوع من العبارات[٣٢].

"من أنا؟" – هوية المسلمين في الغرب:

إن صفة "الغربة" والإرهاب مستمرة في تلطيخ المسلمين على أنهم

"الآخرون". وذلك كما قالت هادية مبارك، أول امرأة يتم انتخابها كرئيس للرابطة الوطنية للطلبة المسلمين: "مازال الإسلام يساوي ثقافة دخيلة... فكيف يكون إظهارنا الالتزام بالإسلام جزءًا لا يتجزأ من هويتنا الأمريكية؟ كيف يستطيع المسلمون تأدية العبادات ولبس أغطية الرأس، وأخذ إجازة في الظهر من العمل لحضور صلاة الجماعة يوم الجمعة، وبناء المساجد، وما إلى ذلك ولا يقلل من وطنيتنا وفخرنا بكوننا أمريكيين؟[٣٣] هؤلاء الذين يصارعون "لفعل ذلك" في الثقافات الأمريكية والأوروبية والبيئات السياسية دائمًا ما يشعرون أنهم أغراب في مجتمعاتهم الغربية، ويعتقدون أنهم يجب أن يتنازلوا عن هويتهم ليتم قبولهم، مما يشجع البعض لمقاومة اندماجهم داخل المجتمع مخافة أن يصبحوا "غربيين" جدًا ويفقدوا تميزهم كثقافة فريدة وعقيدة دينية مميزة. فليس الغربيون فقط ولكن المسلمون أيضًا تساءلوا: هل هم مسلمون في أمريكا أم أمريكيون مسلمون؟ وهل هم مسلمون صودف أنهم يعيشون في أوروبا أم أوروبيون مسلمون؟

ففي المستقبل القريب سيواجه المسلمون التحديات في الحفاظ على عقيدتهم وهويتهم، بينما يختلطون بالمجتمعات الأوروبية والأمريكية المعادية لهم في بعض الأحيان. فالدول الغربية تقدم حريات كثيرة ليست موجودة في الكثير من دول العالم الإسلامي، ولكن المساواة التي يقدرها الغرب كثيرًا تُختبر اليوم بشكل غير مسبوق من قبل. فما هي حدود هذه المساواة الغربية؟ ومن الذي تشمله أو تستثنيه؟ وهل هي علمانية ثابتة أم يهودية مسيحية دائمة؟ هل تستطيع المجتمعات الأوروبية والأمريكية القبول بالمسلمين تمامًا (كما قبلت بالهندوس، والسيخ، والبوذيين، وآخرين غيرهم) ليس فقط كـ"غرباء" يتم تحملهم، ولكن كمواطنين مثلهم، وإخوان لديهم الحقوق السياسية والدينية نفسها؟

فهوية المسلمين المهاجرين تشكلت من خلفياتهم الدينية، والعرقية، والثقافية، بالإضافة إلى تجاربهم في الغرب. فالعيش كأقلية في ثقافة مسيطرة وغالبًا جاهلة بالإسلام، أو معادية له، تجعل العديد من المسلمين يجدون أنفسهم في بيئات مثل النرويج، والدنمارك، والسويد، التي بقيت متجانسة بشكل بالغ، أو مثل بريطانيا وفرنسا، وألمانيا الذين مازالوا متعلقين بهويتهم الرومانسية القومية العتيقة. فبينما يعتبر الكثيرون المسيحية في أمريكا جزءًا لا يتجزأ من الهوية القومية، والقيم، والثقافة، فلقد واجه العديد من الأوروبيين مشكلة المجتمعات الإسلامية الأقلية، وأصروا على أن الهوية الأوروبية لا يمكن فصلها عن الروح الوطنية غير الدينية والحضارة اليهودية المسيحية. فهؤلاء المسلمون في أوروبا وأمريكا يقارنون سلبيًا بين المسيحية أو العلمانية "الثقافة القومية" وبين القيم الإسلامية مما يوقف ويعيق جهود هؤلاء المسلمين في الاندماج والتداخل الاجتماعي داخل المجتمع.

ولكن ظهرت استجابتان واسعتان من المسلمين تجاه الهوية الإسلامية؛ الأولى: كانت في تشجيع بعض القادة المسلمين على عدم الاندماج مع المجتمع، ودعوا إلى خلق مجتمعات دينية/ثقافية منفصلة داخل المجتمعات الغربية، مثل الكاثوليكيين الوثنيين واليهود في أمريكا، الذين لجئوا في البداية لأوطانهم الأصلية من أجل العديد من القساوسة والأحبار، وكذلك اعتمد المسلمون الغربيون في البداية على علاقاتهم بالعالم الإسلامي من أجل القيادة الدينية والدعم. وخاصة في الماضي القريب، حين قدمت المنظمات الدولية التي تدعمها ليبيا، والمملكة العربية السعودية ، وإيران، أو أي من دول الخليج الأخرى دعمًا كبيرًا لبناء المساجد والمدارس وتعيين الأئمة (قائد المسجد)، وتعليم اللغة العربية والإسلام، ونشر الثقافة الدينية، ودعم الزيارات من القادة الدينيين.

ولكن على الرغم من أن هذا الدعم كان قادرًا على إعانة وتقوية المؤسسات

الإسلامية في البداية، فإنه يؤثر سلبيًا أيضًا على المجتمعات على المدى الطويل. فالاعتماد على مصادر خارجية كالسعودية مثلا بفكرهم الوهابي للإسلام أو أي دولة إسلامية أخرى يمكن أن يعيق اندماج المسلمين في المجتمع؛ حيث إن المجتمعات الإسلامية الشديدة الاعتماد على القادة الدينيين المولودين والمدربين في الخارج (يعني خارج أمريكا) الذين غالبًا ما تكون لديهم رغبة ضئيلة في التأقلم مع ثقافات أخرى، ويميلون إلى التمسك برؤية عالمية تقليدية. أولئك القادة غير المؤهلين للرد، فضلا عن التفاعل مع تحديات الحياة في الغرب، لا يقدمون شيئًا سوى زيادة "عقلية الأقلية الثقافية"؛ حيث يعيشون وينصرفون ويُعلِّمون كأنهم هناك في القاهرة، أو مكة أو إسلام آباد، بدلًا من كونهم في نيويورك، أو ديترويت، ولندن، ومانشستر، ومارسيليا أو برلين. وهم ربما لا يدعون فقط إلى الانعزال ورفض نظم السياسة الغربية، بل أيضًا يشجعون الرغبة لأسلمة الغرب. كما علقت هادية مبارك: "في السنوات الثمان الماضية أدرك الأمريكيون المسلمون أنهم لا يستطيعون تحمل حياتهم في عزلة اجتماعية دون الاهتمام برفاهية مجتمعاتهم أو الصورة العامة للإسلام. فبينما يواجهون المشكلات نفسها لكونهم جميعًا أمريكيين- يدفعون الرهن العقاري ويرسلون أبناءهم إلى الجامعة، بالإضافة إلى مواجهة المشاعر المتزايدة المعادية للإسلام" (٣٤).

أما الاستجابة الثانية فكانت في السؤال الحائر: "هل نحن مسلمون أمريكيون أم أمريكيون مسلمون؟" وهؤلاء يمثلون غالبية المسلمين في أمريكا، الذين اندمجوا في مجتمعاتهم الصغيرة. مثل كل الجماعات العرقية الأخرى أمامهم، فهم يرون أنفسهم جزءًا من بنية أمريكا ولديهم رغبة قوية في التعايش مع إخوانهم المواطنين اعتمادًا على المصالح المدنية والدينية والاجتماعية المشتركة. فلقد توصل لويس لوجو، مدير منتدى بيو للدين والحياة العامة، إلى أن "الأمريكيين المسلمين مثلهم مثل باقي الناس في البلد لا يرون تعارضًا بين كونهم مسلمين مخلصين وبين العيش في مجتمع حديث" (٣٥).

أما ألطاف حسين في جامعة هوارد فتشجع المسلمين لوضع "تركيزهم المستمر على العمل المدني... وأن يسهموا في تحسين المجتمع الأمريكي من خلال تأكيدهم القوي على العائلة والعمل الجاد، وحماية البيئة، وإرساء العدالة، والكفاح ضد الظلم والكبت وخدمة ورعاية الضعفاء في المجتمع. وتقول: "بالرغم من أن قلة من جماعتنا في أماكن قريبة وبعيدة من العالم تقوم بتنفيذ أعمال إرهابية تحت اسم الإسلام، لا يجب أن يردعنا شيء عن جعل أنفسنا جديرين بالقول والفعل بالدعم الأمريكي" (٣٦).

تكون أو لا تكون؟ هذا هو السؤال في أوروبا:

إن اندماج المسلمين في المجتمع الأوروبي كان أكثر صعوبة منه في أمريكا. فعلى عكس المهاجرين المسلمين الأمريكيين، الذين أتى العديد منهم إلى أمريكا متعلمين ومدربين، فإن المسلمين جاءوا إلى أوروبا تحت ظروف مختلفة، فلقد جاءوا أساسًا كعمال مأجورين أو حرفيين حينما كانت أوروبا بحاجة شديدة إلى عمال أجانب. ولذلك كان لدى العديد منهم مهارات محدودة وتعليم ضئيل وحراك اجتماعي محدود أيضًا. فالعديد من المسلمين مثلًا في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وهولندا وقعوا في فخ الأقليات الاجتماعية، التي تعاني من الفقر، والجريمة، والعصابات؛ حيث كشف استفتاء جالوب عن أشكال الحياة المقدمة للمسلمين في أوروبا وعن المشكلات التي يواجهونها. فقال نسبة ٦٩% من المسلمين الذين يعيشون في فرنسا و٧٢% في المملكة المتحدة بأنهم يعتبرون أنفسهم "مكافحين"، بينما قالت نسبة ٢٣% من المسلمين في فرنسا و٧% فقط من مسلمي المملكة

المتحدة بأنهم "مزدهرون" ماديًا [٣٧].

وتصور العديد من القصص الإخبارية في أوروبا مسيحية متلاشية معرضة للانقراض بسبب الإسلام، الذي يعتبر الدين الأسرع نموًا وانتشارًا؛ حيث ازداد عدد السكان المسلمين في القارة الأوروبية من ١٢ إلى ٢٠ مليون في عقد واحد فقط، كما أن عدد المساجد في بلدان مثل بريطانيا، وألمانيا، فرنسا، وإيطاليا في تصاعد مستمر. والتحول من الكنائس الأوروبية الفارغة إلى المساجد واستبدال أجراس الكنيسة بالدعوة إلى الصلاة يشكل بالنسبة للبعض "تهديدًا كبيرًا كما ورد في الإحصاءات السكانية المتغيرة. وفي تقلص عدد السكان الأصليين بشكل كبير وزيادة عدد المهاجرين بشدة وخاصة المسلمين، كما أن معدلات المواليد قادت العديد من قادة الكنائس الكاثوليكية والبروتستانتية إلى استنكار العلمانية والتمدن الذي أدى إلى فقدان الايمان، والانهيار الأخلاقي في أوروبا؛ وحذر البعض من أن أوروبا المسيحية أصبحت عاجزة أمام تزايد "الإسلام" المستمر.

ويتنبأ المتنبئون المعاصرون بالهلاك وبأن أوروبا سيجتاحها الإسلام لتتحول بنهاية القرن إلى "أورابيا" أي (أوروبا العربية). وتحذر وسائل الإعلام، والزعماء السياسيون، والمعلقون السياسيون من مؤامرة "الإرهاب السهل" التي تستحوذ على أمريكا وأوروبا؛ حيث يوبخ برنارد لويس، المؤرخ من الشرق الأوسط والمستشار الحكومي في حكومة بوش سياستها الفاشلة في العراق، كما تلقى تغطيات واسعة حينما وبخ الأوروبيين لفقدانهم إخلاصهم، وثقتهم بأنفسهم، واحترامهم لثقافتهم، واتهمهم بأنهم "استسلموا" للإسلام عن طريق "احتقارهم لأنفسهم"، و"قيمهم السياسية"، و"تعدديتهم الثقافية"[٣٨].

أما بات ياور (وهو اسم مستعار لكاتبة يهودية مولودة في مصر تعيش الآن في أوروبا) فتردد اتهامات لويس برنارد نفسها في كتابها المستفز (أورابيا)، الذي تحذر فيه من أن أوروبا سوف تجني ما زرعته في الثلاثين عامًا الأخيرة من الترضيات، والتسويات، والتنازلات الثقافية، وتعزي ضعف أوروبا إلى زعمائها وسياساتهم التي أظهرت التأييد للعرب والعداء لإسرائيل، و"هواجسهم المذعورة من إسرائيل"، وإصرارهم على التركيز على القضية الفلسطينية من أجل السلام العالمي[٣٩]. وتشاركها في ذلك ميلاني فيليبس، صحفية بريطانية يهودية، وكاتبة كتاب (لندنستان) التي تؤيد تهديد المسلمين باجتياح أوروبا، وتتبع كلامها قائلة بأنك "إذا قرأت في وسائل الإعلام العامة، أو شاهدت البي بي سي أو استمعت إليها، أو ذهبت إلى الحرم الجامعي، أو حضرت حفلات عشاء، ستصطدم بادعاءات تخطف الأنفاس عن سرقة المؤامرات الدولية اليهودية للسياسة الخارجية الأمريكية، والذي لم يكن ببساطة واردًا منذ سنوات قليلة ماضية" [٤٠].

كما تناول الأسقف تاديسوز بولسكي رئيس الأبرشية العسكرية الكاثوليكية موضوع تهديد أورابيا قائلا: "الدفاع العسكري ضد الإرهاب الإسلامي تقوده اليوم الولايات المتحدة، والتي تلعب دورًا مشابهًا لذلك الذي لعبته بولندا منذ قرون عديدة حينما كانت خط الدفاع عن المسيحية"، وحث المسيحيين على أن يحولوا دون أن تتحول أوروبا إلى "جزيرة العرب الأوروبية".[٤١] وفي ألمانيا، بيتر فرايش

(رئيس المكتب الفيدرالي لحماية الدستور) أكد مرارًا أن "المسلمين يرغبون في السيطرة على العالم". والكثير من هذه التحذيرات يتم نشرها باستمرار في الصحف الوطنية في ألمانيا وفي كل مكان.

إن الإيقاع المعادي للهجرة إلى أوروبا وإلى الموت الوشيك لهوية أوروبا الثقافية والدينية في مواجهة التهديد الإسلامي ساعدت فيه وسائل الإعلام التي جمعت تنوع الهويات، وقضايا الإحصاء السكاني، والقضايا الاقتصادية، والصراعات الاجتماعية معًا تحت مظلة الدين؛ حيث تصف إثارة الشغب في مناطق الأقليات في فرنسا التي يسكنها عرب شمال أفريقيا بأنهم "مسلمون" أكثر من كونهم متظاهرين ضد الفقر واليأس. كما حدث ذلك أيضًا في مقاطعة المسلمين في لندن احتجاجًا على الصور الكاريكاتورية الدنماركية التي صورت النبي محمدًا على أنه إرهابي معه قنبلة في عمامته، والخلافات في فرنسا، وتركيا، والدنمارك حول الحجاب. كل هذه تُرى على أنها "قضايا دينية" أكثر من كونها قضايا عن الحقوق المدنية والحريات مثل حق المرأة في أن ترتدي ما تريد. ولأن المسلمين الأوروبيين يصنفون ببساطة على أساس عقيدتهم، فهذه المشكلات والقضايا يتم تصويرها بطريق الخطأ على أنها "قضايا خاصة بالمسلمين" في حين أنها في الحقيقة نظرًا لطبيعتها وأسبابها الأساسية تحتاج إلى حلول وسياسات اجتماعية وليست دينية.

كما أن الصور الكاريكاتورية الدنماركية والإعلام الذي تلاها والخلاف في البلدان الأوروبية الأخرى قدم سببًا للجناح اليميني المعارض للمهاجرين/والطوائف الإسلامية والذي يرى اختلافًا جوهريًا بين الإسلام من ناحية، والمجتمع والقيم الغربية العلمانية الحديثة من ناحية أخرى، لأن يتحد المسلمون في أن يبرهنوا أنهم يستطيعون أن يكونوا "أوروبيين حقيقيين". فبالنسبة للمسلمين معارضة الصور الكاريكاتورية كانت مسألة احترام لنبيهم ودينهم. فهم يرون الصور على أنها عنصرية تهدف إلى تحقير الإسلام أكثر ويطلبون الحصول على الاحترام نفسه الذي يتمتع به اليهود والمسيحيون.

إن ضحايا جرائم التمييز والعنف ليسوا من المسلمين المتطرفين ولكن معظمهم من عامة المسلمين المعتدلين في أوروبا وأمريكا؛ وذلك لأن التصريحات المضادة من الحكومات الإسلامية، والمفكرين والزعماء المسلمين ضد التطرف أو العنف لم تتلق نقلًا كافيًا من وسائل الإعلام؛ فكانت النتيجة كما لاحظها الدكتور جيرمي هينزل-توماس رئيس المنتدى ضد فوبيا الإسلام والعنصرية هي أن:

الصور الشائعة التي تصف الإسلام ككل على أنه متزمت، مذهبي، متحجر، ثابت، أحادي البعد، معاد للتطور، غير قادر على التكامل والاندماج، غير مبال بالأفكار الجديدة، رجعي، متأخر، عتيق، بدائي، غير متمدن، عدواني، عنيف، إرهابي، خارجي، متعصب، بربري، مسلح، قمعي، متصلب، مهدد، هجومي، متطرف، متسلط، ديكتاتوري، مستبد، ذكوري، كاره للنساء، شديد الغرابة، ومصر على أن يفرض على العالم نظام حكم ديني متشدد، والتي ستلغي حكومته، أي: مبدأ للحرية والديمقراطية التي يقدرها العالم الغربي. يجب أن أقول إني: لا أعرف مسلمًا واحدًا يجسد حتى واحدة من تلك الصفات، ولي أصدقاء وزملاء عمل مسلمون في جميع مناحي الحياة من ثقافات عديدة حول العالم[٤٢].

نظرًا لانتشار أصوات فوبيا الإسلام فانه من المفاجئ ألا يخاف الأمريكيون والأوروبيون الذين صدمتهم الهجمات الإرهابية في نيويورك وواشنطن، والهجمات المماثلة في أوروبا التي ارتكبت باسم الإسلام من وجود "عدو من الداخل"؟

فبينما قدمت الدول الأوروبية فرصًا للبعض، لا يزال آخرون كثيرون يجدون أنفسهم في مناطق كئيبة، بالإضافة إلى ارتفاع نسبة البطالة، وقلة فرص التعليم وتنمية المهارات الوظيفية؛ حيث أنمت هذه الظروف لديهم شعورًا بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وأنهم مبعدون عن المجتمع ومهمشون ومغتربون، وشاركت في مشكلات المخدرات والجريمة.

فالمسلمون الأوروبيون يعانون بشدة مع هوياتهم كمسلمين. بسبب الفوارق الطبقية والاتجاهات الثقافية، فالجيل الأول والثاني من المسلمين الأوربيين بالإضافة إلى المهاجرين الجدد يشعرون أنهم لن يتم قبولهم أبدًا بالكامل وبالدرجة نفسها كبريطانيين، أو فرنسيين، أو ألمان. فهم على الرغم من كونهم مواطنين انتقلوا على أحسن الأحوال من كونهم "ضيوفًا" إلى كونهم "أجانب". وكثيرًا ما تصبح أجيال الشباب في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا منفصلين عن كلٍّ من هوياتهم الأوروبية وهويات آبائهم الوطنية والدينية.

وأصبح بعض الشباب المسلمين أكثر تأثرًا بالتفسيرات العدوانية لوصف الإسلام، مع العلم أن العديد من الخلافات والصراعات مترسخة أيضًا في المشكلات السياسية والاقتصادية الاجتماعية. فالشعور بالغربة والتطرف وُجد بين كلٍّ من المسلمين الملتزمين وغير الملتزمين، وبين الشباب المتعلمين ذوي الأوساط الاجتماعية والاقتصادية المرتفعة وبين الفقراء على حد سواء؛ فهم كثيرًا ما يتأثرون بما يرون من قيم مزدوجة في السياسات الخارجية لبعض البلدان الأوروبية، التي تتضمن اختيار تأييد ومناصرة الديمقراطية وحقوق الإنسان في العالم الإسلامي، بالإضافة إلى مساندة وتأييد نظم الحكم الديكتاتورية والقمعية أيضًا. وتتضمن شكواهم من العقوبات التي توقع على مسلمي العراق، والغزو الذي تقوده الولايات المتحدة على العراق واحتلالها، والصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والاحتلال الهندي لكشمير، وسيطرة واحتلال روسيا على الشيشان.

وأخيرًا، وعلى الرغم من أن غالبية الأوروبيين المسلمين هم من عامة المسلمين المعتدلين، فإن ازدياد التطرف جاء أيضًا عن طريق قلة من المتطرفين الأجانب، مثل الأئمة الذين هاجروا من البلاد الإسلامية، ووجدوا ملاذهم في أوروبا أو الأنشطة السياسية التي أتت إلى البلاد بشكل غير قانوني، مستغلين انفتاح المجتمع الأوروبي وحرية الكلام والاجتماعات، فهم رجال مثل عبد الله الفيصل، وأبو قتادة، وعمر بكري محمد، وأبو حمزة المصري الذين اخترقوا المساجد أو أنشئوا مساجد خاصة بهم ووجدوا أماكن عامة يجذبون بها هؤلاء الذين شعروا بالغربة أو أنهم مجنبون. وأطلقوا أحكامهم من الكراهية، مدينين البلاد نفسها التي يعيشون فيها، وداعين إلى العنف والحرب على بلادهم ومواطنهم الإسلامية.

أبو حمزة المصري مسلم مولود في مصر هو مثال جدير بالملاحظة. فأبو حمزة دس نفسه في منصب المالك والمتحكم لمسجد حديقة فنسبري بلندن منذ عام ١٩٩٧ وحتى عام ٢٠٠٣؛ داعيًا إلى رسالة تتضمن الكراهية والانتقام. وقد وصف أبو حمزة المجتمع البريطاني على أنه "مرحاض" غير مناسب لأداء الصلوات، وقال: "إن المصدر الرئيسي للدخل في هذا البلد هو في الحقيقة ماذا؟... الربا، والزنا، والخمر، والضرائب، والتآمر لأخذ أرباح دول العالم الثالث"[٤٣]. وخلق أبو حمزة حدودًا لا يمكن تجاوزها بين المسلمين وغير المسلمين، وبين المسلمين الصادقين والمدعين وهم (الذين لم يقبلوا دعوته)، حاصرًا نفسه في التهديد المباشر والمتغلغل في عمق الإسلام، وهو الصراع بين المؤمنين والكفار الذي يحتاج من وجهة نظره إلى جهاد قوي؛ حيث قال: "يجب أن تعرفوا ما هو السبيل إلى الله ويجب أن تساعدوا في إنشاء هذا السبيل عن طريق القتال... فأنتم لا تقاتلون فقط للتفاوض أو للاستعراض أو لتسجيل فيديو أو إذاعة برنامج، أنتم تحاربون لتقتلوا وليس لتسجلوا". وبما أنه يرى أن المسلمين محاصرون فقد ادعى أن "قتل الكافر لأي سبب هو شيء جيد، حتى ولو لم يكن هناك سبب لذلك"[٤٤]. وشرح كيف يمكن

للمسلمين البريطانيين أن يقيموا دولة خلافة في بريطانيا قائلا:

كل ساحة هي هدف، وكل بيت للبغاء هو هدف، وكل من يؤيد ذلك هو هدف، يجب أن تدموا الأعداء سواء أكنتم وحدكم أو تعملون ضمن مجموعة أو مع عائلتكم وعندما تفعلون ذلك ستكونون بالطبع على الطريق الصحيح[٤٥].

وقعت الهجمات في لندن (٧ من يوليو، ٢٠٠٥)، وفي جلاسجو (٣٠ من يونيو، ٢٠٠٧)، ومدريد (١١من مارس ، ٢٠٠٨) والاعتقالات في جميع المدن الأوروبية شددت على أخطار الإرهاب المحلي.

لماذا لم يدن المسلمون الإرهاب؟:

منذ أحداث ١١ من سبتمبر تكلمت في جميع أنحاء الولايات المتحدة مع قطاع عريض من الموظفين الحكوميين، ورجال الإعلام، والزعماء الدينيين، وأساتذة الجامعة، وعامة الناس. والسؤال المحتوم الذي سأله أعضاء مجلس الشيوخ، وخريجو الجامعات، ورجال الإعلام، ليس بشكل قابل للمناقشة ولكن كاتهام مؤكد: لماذا لم يدن الزعماء المسلمون أحداث ١١ من سبتمبر والإرهاب الإسلامي؟.

إن المخاوف والمشاعر المتضاربة بين عامة المسلمين داخل أمريكا وخارجها حول تأثير أحداث ١١ من سبتمبر كانت ممزقة بين الدفاع والانتقاد ويصعب تقديرها. العديد من المسلمين في العالم العربي والإسلامي لجئوا إلى حالة من الإنكار، مدعين أن حكومة بوش فشلت في تقديم أي دليل مادي أو إثبات أن المسلمين كانوا هم المسئولين عن الهجمات. أما البعض الآخر فلجئوا إلى ما استطاعوا إليه من تبريرات مثل أن المسئول عن ذلك هو: المخابرات الإسرائيلية (الموساد)، لذلك فإن اليهود الذين يعملون في مكاتب مركز التجارة العالمي تم تحذيرهم من الذهاب إلى العمل في ذلك اليوم، أو على الأقل حاولوا إخفاء إلقاء اللوم على المسلمين والعرب في التسبب بتلك المأساة. إن مقدار عدم التصديق بين المسلمين كان ومازال مدهشًا؛ حيث ذكرت عائلات الخاطفين في السعودية أن أبناءهم مازالوا أحياء وأصر العرب على أنه لا يوجد عربي واحد يستطيع قيادة الطائرات في البرجين.

وشاركت وسائل الإعلام بشكل مباشر وغير مباشر في الربط بين المسلمين والصور السلبية، مسترشدين بطريقة ديبورا تانين أستاذة علم اللغويات وكاتبة كتاب ثقافة المناقشة التي قالت: "لا قتال، ولا قصة"، فالهدف ليس تغطية وتسوية الحقائق من المبالغة أو المعلومات الخاطئة، ولكن التركيز على المواجهة والصراع، العنف والإرهاب، الدموع والمأساة[٤٦]. قليلون هم الذين احتفلوا بالهجمات كنوع من "الانتقام" الموجه ضد السياسات الخارجية الأمريكية الفاشلة في الشرق الوسط، وحظوا بتغطيات واسعة من وسائل الإعلام، ونقلت محطات إذاعية كبرى صوربعض الفلسطنيين يحتفلون بالهجمات على أمريكا في الشوارع مرات عديدة.

بينما طغت الصدمة والقلق على مشاعر عامة المسلمين. ووجد استطلاع مركز جالوب العالمي أن ٩١% من المسلمين الذين أجريت معهم مقابلات يعتقدون أن الهجمات غير مبررة أخلاقيًا. والأكثر من ذلك كانت حقيقة أن ٣٥٨ موظفًا مسلمًا ماتوا داخل مركز التجارة العالمي، وحيث إن عدد المسلمين العاملين هناك كان كبيرًا أنشأ مركز التجارة غرفة للصلاة في الطابق الثاني. أما أحد أكثر التجارب التي أثرت بي هو حديثي في ذكرى وفاة شاب وزوجته من بنجلاديش

كانا يعملان في مركز التجارة العالمي وماتا هناك. أما القليل من وسائل الإعلام كما هو حادث الآن هي التي ذكرت تصريحات الزعماء والمنظمات الإسلامية التي تكلمت عاليًا في الموضوع، أو أصدروا بيانات عامة بذلك، أو أدانوا الهجمات الإرهابية وعبروا عن تعازيهم. فلماذا لم تسمع أصواتهم؟

ذلك لأن أوضاع وتصريحات عامة المسلمين ليست عناوين رئيسية للأخبار، وغالبًا ما تعتبر بلا قيمة. أما دعاة السلام وحل الصراع ربما إذا كانوا محظوظين فقط يفرد لهم مكان ما في الصحفات الخلفية في الجريدة. فكانت النتيجة الوصول للاشيء عن هذه الأدلة ومزيد من الاقتناع بأن المسلمين لم يتحدثوا ضد العنف والإرهاب.

إن نقص التغطية الصحفية للبيانات الرسمية للمسلمين التي تدين التطرف الديني والإرهاب- سمحت لاستمرار السؤال: "لماذا لم يتكلم المسلمون؟". وعليه فإن أفعال قلة خطيرة من المسلمين المتطرفين أصبحت الشكل المشوه الذي يُرى من خلاله جميع المسلمين والدين الإسلامي، كما أوضح فرانكلين جراهام أن "سكوت رجال الدين في العالم يرعبني؛ كيف لم يعتذروا إلى الشعب الأمريكي، ولم يؤكدوا للأمريكيين أن هذا ليس هو الإسلام الحقيقي، ولا يعمل هؤلاء الإرهابيون باسم الله أو باسم الإسلام؟"![٤٧].

إن فشل وسائل الإعلام في تقديم تغطيات متساوية (عن كلا الجانبين: المسلمين والأمريكيين)- ضاعف المشكلة التي شملت حتى المعلقين السياسيين المطلعين على الأحداث مثل توماس فرايدمان كاتب عمود الشئون الخارجية في جريدة النيويورك تايمز الذي كتب عن الشرق الأوسط لست سنوات. من المدهش أنه في اليوم التالي للتفجيرات التي حدثت في لندن كتب في مقاله: "إذا كانت هذه مشكلة مسلمين فهي تحتاج إلى حل من المسلمين أنفسهم"، وعلق قائلاً: "حتى الآن وحتى ذلك اليوم لم يقم أي من كبار رجال الدين أو الهيئات الدينية بإصدار فتوى تدين أسامة بن لادن"[٤٨].

كان أول ما صدمني عبارة فرايدمان الذي كان من المفترض أن يكون أكثر حكمة من أن يقول مثل هذا الكلام، مما ذكرني بالجواب الغاضب لوالدي حين يتناقش بشدة مع أبنائه المثقفين: "أنت أذكى من أن تكون بهذا الغباء". فقد بدا مقال فرايدمان مثيرًا للسخرية؛ وذلك حيث إن جريدته نشرت في وقت سابق وتحديدًا في ١٧ من أكتوبر ٢٠٠١ مقالًا من صفحة كاملة قدمته مؤسسة بيكيت للحرية الدينية جاء فيه: "أسامة بن لادن يختطف أربع طائرات ودين"، يصاحبها بيانات صادرة من أشهر قادة العالم الإسلامي يدينون فيها الهجمات على أمريكا. وكان ضمن هؤلاء: الشيخ عبد العزيز آل شيخ (من كبار المفتين في السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء)، والشيخ زكي بدوي (رئيس الجامعة الإسلامية في لندن)، والمفتي الشيخ نظام الدين شامزاي مفتي دولة باكستان، والملك عبد الله الثاني ملك الأردن، ومنظمة المؤتمر الإسلامي.

وهذه البيانات العامة كانت فقط المقدمة؛ حيث في بداية ١٤ من سبتمبر ٢٠٠١، نقلت البي بي سي إدانات لأحداث ١١ من سبتمبر على أنها أعمال إرهابية من قبل مجموعة كبيرة ومؤثرة من الزعماء الدينيين بدءًا من الشيخ محمد سيد طنطاوي شيخ جامعة الأزهر بالقاهرة، والإمام الأكبر للأزهر الشريف (والذي يعتبره الكثيرون واحدًا من أعلى المراجع في الإسلام السني) وإلى آيات الله كاشاني في إيران[٤٩]. بالإضافة إلى الأستاذ مصطفى مشهور (المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، في مصر)، والشيخ قاضي حسين أحمد (أمير الجماعة

الإسلامية في باكستان)، والشيخ مطيع رحمان نظامي (أمير الجماعة الإسلامية في بنجلاديش)، والشيخ أحمد ياسين (مؤسس حركة المقاومة الإسلامية حماس في فلسطين)، والشيخ راشد الغنوشي (زعيم حركة النهضة في تونس)، والشيخ فاضل نور (رئيس الحزب الإسلامي في ماليزيا)، وأربعين آخرين من العلماء والسياسيين المسلمين، والذين كانت أيضًا خطاباتهم التي تدين الإرهاب قوية ومؤثرة.

لقد شعر زعماء ورؤساء الحركات الإسلامية الموقعون هنا في هذا البيان بالصدمة من أحداث يوم الثلاثاء ١١ من سبتمبر من عام ٢٠٠١ في الولايات المتحدة، والتي أسفرت عن أعداد هائلة من القتلى، والدمار ، والاعتداء على أرواح بريئة. ونحن نعبر عن تعاطفنا الشديد وأسفنا لما حدث. وننتدد بهذه الأحداث بكل ما أوتينا من قوة؛ حيث إنها ضد جميع المبادئ البشرية والإسلامية. وهذا مذكور في الشريعة الإسلامية التي تحرم جميع أشكال الإعتداءات على الأبرياء. ويقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء : ١٥] [٥٠].

وعلاوة على ذلك في ٢٧ من سبتمبر ٢٠٠١ قام الشيخ يوسف القرضاوي (رئيس مجلس السنة والسيرة النبوية في قطر) والشيخ طه جابر العلواني (رئيس مجلس الفقه بأمريكا الشمالية) بإصدرا فتوى مشتركة وقع عليها الزعماء المسلمون الأمريكيون، وعلماء المسلمين على مستوى العالم؛ حيث أدانت الفتوى أعمال ابن لادن في ١١ من سبتمبر، ودعت المسلمين إلى الالتحاق بجيش الولايات المتحدة في أفغانستان. وأوضحت الفتوى أن واجب كل مسلم العمل على الإبلاغ عن أي شخص خطط، أو شارك، أو موّل هذه الأعمال وتسليمه للعدالة. وردًا على السؤال القائل: هل يمكن للمسلمين أن يحاربوا في الجيش الأمريكي ضد إخوانهم المسلمين في أفغانستان أو في أي مكان آخر، علمًا بأنه من الممكن أنْ يُقْتَلَ مسلمون أبرياء في مثل هذه الحملات الضخمة، فقد أجازت الفتوى مشاركة المسلمين في حملة الولايات المتحدة ضد أفغانستان [٥١].

وظهر واحد من أوضح الاستنكارات للإرهاب العداء للغرب في جريدة أخبار العرب، إحدى الجرائد المهمة في السعودية، وذلك بعد فترة قصيرة من التفجيرات التي استهدفت الأمريكان في السعودية في مايو ٢٠٠٣:

"إن الكلمات لتعجز عن وصف مشاعر الصدمة، والاستهجان، والغضب من التفجيرات الانتحارية التي حدثت في الرياض. هل بدأ المهاجرون في تشكيل جيش الاحتلال هنا في السعودية ليتم قتلهم وترويعهم ليغادروا أم ماذا؟... نحن لا نستطيع أن نقول: إن التفجيرات الانتحارية في إسرائيل وروسيا مقبولة بينما هي ليست كذلك في السعودية. إن هذه المجموعة من الانتحاريين يجب أن يوقفوا عند حدهم، وكذلك الدعاية الحاقدة الانتقامية للكراهية؛ فلقد أنشأت أرضًا خصبة للجهل والعداء للنمو بيننا.

فهناك الكثير في سياسة الولايات المتحدة لندينه؛ وهناك أوجه عديدة من المجتمع الغربي التي تسيء إلينا والتي تدينها الحكومات العربية، ولكن معاداة الأمريكان ومعاداة الغرب لشخصهم يعتبر فظاظة وجهلا. فهذه التفجيرات خلقت الكراهية ويجب أن يتم إنهاؤها فورًا، وإلا فسيكون هناك المزيد من الوحشية"[٥٢].

واستمر العديد من المنظمات والزعماء المسلمين في الرد على الهجمات الإرهابية الكبرى. فمثلا بعد الهجمات الإرهابية في لندن عام ٢٠٠٥، وجلاسجو عام ٢٠٠٧، ومومباي عام ٢٠٠٨، أصدر العديد من القادة المسلمين والمنظمات العالمية بيانات يدينون فيها الإرهابيين وأعمالهم.

كما قام أكثر من خمسمائة من القادة والعلماء المسلمين البريطانيين بإصدار فتوى ردًا على التفجيرات في لندن يعبرون فيها عن خالص تعازيهم لعائلات

الضحايا، ويتمنون الشفاء العاجل للجرحى، ويقرون أن الإسلام يدين الإرهاب والعنف والدمار لحياة الأبرياء، وأن تلك التفجيرات الانتحارية >محرمة قطعًا<[٥٣]، كما أدان أيضًا الشيخ طنطاوي شيخ الأزهر الهجمات على لندن قائلا: >إنها عمل إجرامي لا يحترم الإسلام أو حتى يفهم رسالته عن حق<. كما أكد الشيخ آيات الله محمد حسين فضل الله العالم الشيعي المعروف أن: >هذه الجرائم لا يقبلها أي دين، وأنها وحشية يرفضها الإسلام<. وما أثار دهشة البعض أنه حتى حماس أوضحت على لسان نائب رئيس المكتب السياسي موسى أبو مرزوق الذي قال: >إن استهداف المدنيين أثناء ركوبهم المواصلات يعني رفض واستنكار الأرواح< كما شارك حزب الله في الإدانات في (الأسس الأخلاقية والدينية للإنسانية)[٥٤].

ومع ذلك فالرأي التقليدي القائل بأن المسلمين لم يدينوا الإرهاب مات بصعوبة. فحتى يومنا هذا مازال الأمريكيون يثيرون ذلك الاتهام على الرغم من العدد الهائل من العلماء المسلمين والمنظمات الإسلامية التي أدانت بشدة أحداث ١١ من سبتمبر والأعمال الإرهابية التي تلت ذلك (وأصدروا فتاوى بذلك) في بلدان مثل: السعودية، وماليزيا، والولايات المتحدة، والتي يمكن الوصول إليها بسهولة في الصحف الدولية وعلى شبكة الإنترنت[٥٥].

كما اشترك المسلمون المذهولون من أحداث ١١ من سبتمبر في أمريكا الشمالية وأوروبا في التعبير عن مخاوفهم من انتشار فوبيا الإسلام بين مجتمعاتهم، وجيرانهم وزملائهم في العمل بالإضافة إلى انتشار جرائم الكره والعنصرية، واضمحلال الحريات المدنية، وقد تحققت مخاوفهم بالفعل؛ حيث إن جميع المسلمين في الغرب أجبروا على العيش في أجواء من التشكك والعداء في أوروبا وأمريكا، ومن ناحية أخرى فقد أجبرت هذه التجربة أيضًا المسلمين في الغرب أن يعيدوا تقييم هوياتهم والتدقيق في فهمهم للإسلام، وكان من ضمن النتائج الإيجابية لذلك مسارعة المسلمين لعقد المناقشات والمناظرات الداخلية والتساؤل فيما بينهم عن ماذا يعني كونهم مسلمين داخل أوروبا وأمريكا، والتواصل مع مجتمعاتهم من غير المسلمين، ووازدياد مشاركتهم في الانتخابات والشئون الاجتماعية.

أن تكون أمريكيًّا أو أوروبيًّا مسلمًا :

لقد أدرك المسلمون في أوروبا وأمريكا أن نجاحهم في أوطانهم الجديدة يتطلب الإصلاح وبناء المؤسسات. ففي كلٍّ من أمريكا وأوروبا، في العقود الأخيرة الماضية- كان هناك ازدياد ملحوظ في عدد المساجد، والمراكز الإسلامية، والمدارس، والمنظمات الاجتماعية، وجماعات الدعوة؛ وذلك لأن البحث عن أوطانهم السابقة أو الدول الغنية بالبترول مثل السعودية من أجل الدعم المادي والأئمة يمكن أن يؤدي إلى تقوية الفكر الديني (الوهابي والسلفي) والتأثيرات السياسية التي يمكن أن تنجم عن ذلك، لذلك فهناك تركيز جديد على تطوير المراكز الدينية الموجودة لتدريب القادة والعلماء الدينيين المحليين.

وأنشأ المسلمون المؤسسات لتحسين معرفتهم بالإسلام في الغرب ولحماية حقوقهم. كما أن المنظمات التعليمية تراقب الكتب المدرسية وتعليم الإسلام للتأكد من الدقة والموضوعية. أما منظمات الشئون الاجتماعية فتراقب وتعلم وسائل الإعلام، والمشرعين، وعامة الناس. ومن جهة أخرى تقوم خدمات الاستعلامات الإسلامية بتوزيع المنشورات، والأفلام والتسجيلات المصورة عن الإسلام والمسلمين. وأنشئت المدارس الإسلامية (الابتدائية والثانوية) في العديد من المجتمعات، وتم وضع الوسائل التعليمية والمناهج الدراسية لكل من الأطفال والبالغين في المساجد والمدارس.

وسمحت الحرية في الغرب للقادة والمثقفين المسلمين أن ترتفع أصواتهم

منادية بالتغيير الديني والاجتماعي والسياسي؛ حيث تركزت كتاباتهم وخطبهم على إعادة التفسير والإصلاح مع المحافظة على دور وحقوق المرأة، والمساواة الدينية، والتسامح، والبعد عن التطرف الديني، وكيف يمكن أن تكون أمريكيًا وأوروبيًا مسلمًا والمحافظة على الحقوق المدنية للمسلمين والحريات. وكما أشارت إنجريد ماتسون، حينما لا يستطيع العلماء تقديم الحلول لجميع التحديات يمكنهم على الأقل >أن يقدموا الدعم لأصحاب المهن عن طريق عرض تقييمات واقعية للتاريخ الإسلامي، مشيرين إلى النقائص وفي الوقت نفسه إلى الانتصارات، وذلك لحماية شبابنا من الانقياد وراء بعض الشخصيات المؤثرة التي يمكن أن تقودهم إلى الدمار<[٥٨].

فاليوم يقوم كل من العلماء الأوروبيين والأمريكيين المسلمين بصياغة آراء قانونية جديدة لإرشاد المجتمع المسلم مسترشدين بالخبراء الإسلاميين القانونيين حول العالم. وتتراوح فتاواهم بدءًا من الأمور المتعلقة بالصلاة والصيام إلى القرارات حول الزواج والطلاق، وإلى الأبحاث المتعلقة بتجدد الخلايا. كما يعرفون المجتمع بالمعاملات المالية الإسلامية وكيفية الإدلاء بأصواتهم في مجتمع غير مسلم لصالح مرشحين غير مسلمين، بالإضافة إلى إرشاد المسلمين حول القضايا المهمة مثل الديمقراطية، والمساواة والتسامح.

وبالرغم من قطع شوط كبير في هذا المجال يظل عدد وموارد وتأثير تلك المشروعات ضئيلا. كما يظل السؤال قائمًا عما إذا كانت المجتمعات الإسلامية في أوروبا وأمريكا قادرة على تقديم الموارد المالية والبشرية اللازمة لبناء مجتمع قوي قادر على الاعتماد على نفسه في القرن الواحد والعشرين- أم لا.

فالمسلمون يواجهون تحديات أكبر من مجرد إيجاد موارد لبناء مجتمعاتهم. فالبعض من غير المسلمين في الغرب يرحبون باندماج المسلمين وبناء المؤسسات الإسلامية في المجتمع، بينما آخرون لا يفعلون ذلك. وذلك كما رأينا في الاقتباسات السابقة التي جاءت على لسان وزراء اليمين المسيحي أثناء رئاسة جورج بوش أوقلق أوباما من أن تشتبه الأحزاب السياسية المعادية للمهاجرين، وأساتذة الجامعة من اليهود في كونه مسلمًا. فالمنظمات الإسلامية والمسلمون يحصلون على أكثر من نصيبهم في النقد والاتهامات الباطلة. وتصل الاتهامات إلى مستوى أعلى على الصعيد السياسي بالنسبة للمؤسسات الإسلامية العامة وجماعات العمل السياسي، وهي أنهم يعلمون كواجهات للمتشددين الذين يدعمون الأنشطة المتطرفة في الخارج. وكلما رغب المهنيون من المسلمين في الالتحاق بمجالس الإدارة أو المشاركة في الأعمال السياسية، أو التقدم لمناصب وظيفية -يتم اعتبارهم متطرفين أو إرهابيين. وتشجع نهاد عواد المديرة التنفيذية لمجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية (كير)- المسلمين لمواجهة >صناعة الخوف المعادية للمسلمين< عن طريق رفض >دعاة الكراهية بنفس الإصرار الذي جعل النساء الأمريكيات يفزن بحقهن في التصويت، وتحدوا الشيوعية وأنهوا التفرقة العنصرية<[٥٩].

والسؤال هنا: هل تلك المجموعة من وجهات النظر السلبية عن الإسلام تمثل آراءً مطلعة على أحدث المعلومات؟ وهل أصبح المثقفون يمثلون معظم الأمريكيين؟ فإنه على الرغم من قلق الأمريكيين بعد أحداث ١١ من سبتمبر وحقيقة أن المسلمين جزء لا يتجزء من المجتمع الأمريكي فقد اعترف ما يقارب من ثلثي الأمريكيين أنهم لا يعرفون حتى المفاهيم الأساسية عن الإسلام. وقد استمر هذا النقص في الفهم ومازال مستمرًا. والتغييرات التي حدثت منذ عام ٢٠٠٢ وحتى عام ٢٠٠٧ كانت ضئيلة للغاية حول العدد الكبير من الأمريكيين الذين لا يعرفون شيئًا على الإطلاق عن الإسلام؛ وكانت نسبتهم (٢٤%) أو الذين يعرفون القليل فقط عن الإسلام، حيث كانت نسبتهم (٤١%). ومن عام ٢٠٠٧ إلى عام ٢٠٠٩ حدث انخفاض طفيف في هذه النسبة؛ فبعد أن كان المجموع ٦٥%

انخفض إلى ٥٩% والذي يعد رقمًا مدهشًا. وبالمثل انخفض عدد الأمريكيين الذين قالوا: إن لديهم رأيًا سلبيًا عن الإسلام من ٥٩% في عام ٢٠٠٧ إلى ٥٤% عام ٢٠٠٩(٥٨).

فسمات الجانب المظلم >لسلبية المسلمين< في البلدان الإسلامية كثيرة ومتعددة. فالدعاة المسلمون مثل أقرانهم من المسيحيين من أمثال جون هيجي، وروود بارسلي، وبات روبرتسون يلقون الخطب المتعصبة القائمة على وجهات النظر الدينية التي تنحصر في قولهم: >أنا على صواب، وأنتم على خطأ، أنا سأذهب إلى الجنة، وأنتم ذاهبون إلى الجحيم<. وهذا الوصف نفسه الذي وصفه طالب مسلم ذات مرة لهذه العقليات المتصلبة، المسرفة في المحافظة، التي تعتبر الصلاح متمثلا فيها فقط كأنها رسالة قائلة: >لا يا إسلام<: لا تفعل هذا، ولا تفعل ذاك، هذا حرام وسيدخلك النار. لأن أولئك الذين لا يعرفون المسلمين جيدًا دائمًا ما يتنازعهم نوعان من التفكير حين يفكرون بالمسلمين >الغرباء<، الأول: شعور بالتفوق، والثاني: شعور بالخوف من هؤلاء المسلمين. ولكن من ناحية أخرى، كما أوضحت العديد من الاستفتاءات، أن الأمريكيين المطلعين بشكل أفضل على الدين الإسلامي والمسلمين غالبًا ما تكون لديهم آراء إيجابية عنهم.

ففي القرن الواحد والعشرين ترك الغرب رؤية جيرانهم من المسلمين على أنهم دخلاء أو مرعبين >آخرين<، ولم يعد ذلك حاجزًا بعد الآن نظرًا للحضور المؤثر للمسلمين في أوروبا وأمريكا، كما تتنبأ الإحصاءات السكانية بإمكانية أن يصبح الإسلام ثاني أكبر ديانة في أمريكا.

ما هي معتقدات المسلمين؟ ولماذا يعتبر معرفة ذلك مهمًّا؟:

في ١٦ من يناير عام ٢٠٠٥ كان العنوان الرئيسي لجريدة النيويورك تايمز الصادرة ليوم الأحد كالآتي: >قائمة كتب للقراءة لتأدية الخدمة في العراق< كما وضعها الفريق جون آر فينز القائد الأمريكي للقوات في العراق، والذي حدد هذه الكتب لكبار الأعضاء العاملين معه لقراءتها. وكان خمسة كتب ضمن الثمانية التي أوصى بقراءتها- تتناول جوانب مختلفة عن الإسلام. وتضمنت القائمة كتابين قمت بكتابتهما بعد أحداث ١١ من سبتمبر، وهما: >ما يجب على الجميع معرفته حول الإسلام، أسئلة وإجابات عن الإسلام< و>الحرب غير المقدسة: إرهاب باسم الإسلام< دراسة لنشأة وتطور تأثير أسامة ابن لادن وانتشار الإرهاب العالمي. وكلا الكتابين قمت بكتابتهما ردًا على الفيض غير المتناهي من الأسئلة حول الموضوعات الساخنة التي لا يبدو أنه يتم توضيحها أبدًا.

فأنا عادة ما أقول: إن لدي أفضل وأسهل وظيفة في العالم؛ لأنه وبعد ثلاثين عامًا من العمل في هذا المجال وتزايد الاهتمام والحديث عن الإسلام والعالم الإسلامي، وذلك منذ الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وكذلك بعد أحداث ١١ من سبتمبر- مازال الناس يسألون الأسئلة نفسها، مثل: هل الإسلام دين عنف؟ وماذا قال القرآن عن الإرهاب؟ وهل الإسلام يتفق مع التطور والديمقراطية؟ فالوكالات الحكومية في أوروبا وأمريكا (وزارتا الدفاع والخارجية، والبنتاجون، والمخابرات المركزية الأمريكية، ووكالة الأمن القومي، ومكتب التحقيقات الفيدرالي)، والمؤسسات السياسية، ومجالس الشئون الدولية، ووسائل الإعلام- لا يسألون فقط عن >الإسلام السياسي<، والتطرف الديني، والإرهاب، ولكن يسألون أيضًا عن الدين الإسلامي نفسه. لماذا؟ لأنه وفي القرن الواحد والعشرين- سواء شئت أم أبيت- يقودنا السؤال عن تأثير الدين والثقافة حتمًا إلى النقاش حول المجتمعات الناشئة، والسياسة، والإرهاب والعنف، وجميع الشئون العالمية الأخرى.

فبالنسبة للعديد من المسلمين، الإسلام هو المسار الروحي الذي يعطي هدفًا

ومعنًى للحياة، وهو عبادة الله الغفور الرحيم والعادل، وهو الإله الذي يمنحنا السلام والعدالة الاجتماعية. ومع ذلك وعلى الرغم من أن ٦٥% من الأمريكيين يدركون أهمية الدين في حياتهم، فالأمريكيون المسلمون على وجه الخصوص وبنسبة كبيرة ٨٠% يشهدون بأهمية الإيمان. فمن بين الجماعات الدينية التي استطاعت الصمود في أمريكا كان المورمون الأمريكيون بنسبة ٨٥% وهي أعلى قليلا من نسبة المسلمين التي كانت ٨٠% الذين قال: وا إن الدين يلعب دورًا مهمًا في حياتهم، بينما وصلت نسبة الأمريكيين اليهود إلى ٣٩% وهي تعد أقل نسبة[٥]. ومن المدهش أنه من ضمن المجموعات الدينية التي تمت معاينتها كانت النساء- طبقًا للإحصاءات- أكثر ميلا من الرجال للقول بأن الدين هو جزء مهم من حياتهم، ولكن هذا ليس صحيحًا بالنسبة للأمريكيين المسلمين الذين تتساوى نسبة كل من الرجال والنساء لديهم للقول بأهمية الدين في حياتهم.

وعلى المستوى العالمي يُرى الإسلام على أنه مصدر رئيسي للهداية، والسلوان، والأمل وسمة من سمات المجتمع الإسلامي في العالم. وهذه ليست مجرد عبارة دينية أو ملحوظة أكاديمية؛ فهذا ما يؤكده وبشدة غالبية المسلمين حول العالم. فعلى سبيل المثال في استفتاء جالوب في عام ٢٠٠١ وعامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٧ كان أغلب الذين أجري عليهم الاستفتاء في البلدان التي يقطنها أعداد كبيرة من المسلمين يقرون: إن الدين يشكل جزءًا لا يتجزأ من حياتهم اليومية، وكانت نسبتهم تتراوح بين ٩٠% وأكثر أو أقل؛ حيث كانت نسبتهم في مصر ١٠٠%، وفي أندونسيا وبنجلاديش ٩٩% أما في المغرب فكانت ٩٨% . كما اعتبرت نسبة كبيرة من المسلمين >وجود حياة دينية/روحية< كجانب من جوانب الحياة- شيئًا ضروريًا لا يستطيع المرء الاستغناء عنه. والأكثر من ذلك أنهم حين سُئلوا عن أكثر ما يعجبهم في العالم الإسلامي- كان أول ما أجابوا به في العديد من المجتمعات الإسلامية مثل تركيا، والسعودية، وإندونيسيا هو: >تمسك المسلمين الشديد بالإسلام<. وبالمثل رد العديد من المسلمين الأوروبين بالإيجاب حين سُئلوا: هل يعد الدين جزءًا مهمًا من حياتهم اليومية أم لا؟ فقد أجاب نسبة ٨٢% في ألمانيا بالإيجاب، وفي بريطانيا كانت نسبتهم ٧٠% أما في فرنسا فوصلت نسبتهم إلى ٦٩% فقط[٦].

ولذلك لمحاولة فهم مصدر هذا التأثير في العالم، علينا أن نعطي أكبر قدر من اهتمامنا لعقيدة الغالبية من المسلمين كما نفعل مع الأقلية الإرهابية.

من هم أبناء إبراهيم؟:

أنا مثلي مثل الكثيرين من جيلي نشأت في >أمريكا المسيحية<، أو هذا ما كنت أعتقده وتعلمته. وكانت المساواة الدينية تعني المساواة بين الكاثوليك والبروتستانت والقليل من اليهود المهمشين. وكان الدين يتم تعليمه في مدارس وجامعات مختصة بذلك، فالكاثوليكية تعلم في الجامعات الكاثوليكية، والبروتسانتية في الجامعات والكليات البروتستانتية، واليهودية في المعاهد اليهودية.وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح الارتباط بين المسيحية واليهودية ملحوظًا بعد تكون المجتمع المسيحي اليهودي الجديد الذي قال: إنه بالرغم من الاختلافات الملحوظة بينهما وتاريخ اليهود من الاعتداءات، يشترك كل من المسيحيين واليهود في الاعتقاد بوجود إله واحد، وأنه أرسل الأنبياء، وأوحى إليهم، وذلك كما جاء في (العهد القديم، أو التوراة اليهودية). ولكن أين كان الإسلام في ذلك الوقت؟ الدين الآخر الذي يدعو إلى التوحيد الذي بدأ في الشرق الأوسط ويعترف بوجود نفس الإله الذي يعترف به المسيحيون واليهود وأنه أرسل الأنبياء وأوحى إلى موسى وعيسى؟

الوحدة والتنوع- إله واحد ورسالات متعددة:

على مر السنين وخاصة حين قررت أن أدرس الإسلام، سألني الكثيرون:

>لماذا؟ لماذا تدرس الإسلام الآن بعد أن قضيت سنوات عديدة في دير للرهبان الكبوشيين، وبعد أن حصلت عن شهادة جامعية ومنصبًا لتدريس الدين الكاثوليكي في الجامعة؟<. أعتقد أن إجابة هذا السؤال تستلزم مساحة أكبر مما هو مسموح به هنا، ولكن باختصار لقد ذهبت إلى جامعة تيمبل لأحصل على درجة الدكتوراة في الدين وتخصصت في الدراسات الكاثولكية. ولكن حين انتقلت للتركيز على الهندوسية والبوذية كنت أشعر بدافع يحثني بشدة على الالتحاق بدورة تدريبية عن الإسلام مع الأستاذ المسلم إسماعيل الفاروقي. ولدهشتي الشديدة اكتشفت أن الإسلام يماثل المسيحية واليهودية بشدة. ففي الوقت الذي ارتبطت فيه المسيحية باليهودية بما نسميه الاتجاه المسيحي اليهودي، وكان الإسلام ضمن مجموعة الأديان الأخرى مثل الهندوسية والبوذية، أدركت فجأة أنه على الرغم من الاختلاف الواضح بين الأديان الثلاثة فهناك ثقافة إسلامية- مسيحية- يهودية.

فالمسلمون يشاركون اليهود والمسيحيين في وجود إله واحد وأنه أرسل أنبياءه وأوحى إليهم، كما يتشاركون في المسئولية الأخلاقية، وبتقديرهم للسلام والعدالة الاجتماعية. فجميع الأديان الثلاثة يعتقدون أن لديهم عهودًا ومواثيق مع الله، وأنهم خلفاء الله في الأرض، ومأمورون بطاعة أوامره بالحفاظ على العالم وحمايته وتطويره من أجل الأجيال المستقبلية. فالأديان الثلاثة يعتبرون أنفسهم أديانًا تدعو للسلام.

فلماذا يؤكد المسلمون أن الإسلام هو دين سلام؟ فكلمة >إسلام< نفسها تعني >السلام والاستسلام لله<. وهي الكلمة نفسها التي يستخدمها اليهود للتحية: شالوم والتي تعني (سلام)، أما المسيحيون فيحيي بعضهم بعضًا بإشارة تعني السلام، والمسلمون يقولون: السلام عليكم كلما قابلوا أحدًا أو ودعوه.

ويشعر المسلمون بالاستغراب والإحباط كلما سمعوا المسيحيين أو اليهود يشيرون إلى الله على أنه اسم خاص بإله مختلف تمامًا عن إلاههم! وذلك لأن كلمة الله هي الكلمة العربية لكلمة >إله< يستخدمها كل من يتحدثون العربية حتى المسيحيون العرب يشيرون إلى الإله بكلمة الله. والمسلمون يعتقدون أن إلههم هو إله كل الناس الواحد الأحد، الخالق، الرازق، مالك الكون الذي أرسل رسالاته لكل من اليهود، والمسيحيين، والمسلمين على حد سواء.

فلقد نشأ المسلمون على إنساب الرحمة والعطف لله ولدينهم. وقراءة القرآن والصلاة تزيد من اعتقادهم في وجود هذه الصفات. فكل سورة من سور القرآن تبدأ بكلمة >بسم الله الرحمن الرحيم<. ويبدأ المسلمون بهذه العبارة قبل أي حديث، وقبل تناول الطعام، أو تشغيل السيارة، وهي تكتب في بداية الخطابات والوثائق القانونية لديهم.

الاتجاه الإسلامي- المسيحي – اليهودي:

بالنسبة للمسلمين لا يعتبر الإسلام دينًا جديدًا برسالة جديدة. فهم ليسوا مثل المسيحيين الذين يعتقدون أن المسيحية جاءت لتحل محل اليهودية، فالمسلمون يعتقدون أن الله أرسل رسالته للمرة الأخيرة للنبي محمد ليدعو البشرية التي ضلت طريقها عن رسالة المسيحية واليهودية.

وبعيدًا عن الموافقة على أن دين المسلمين هو آخر الأديان التي تدعو إلى الوحدانية، يرى المسلمون أن القرآن هو الرسالة الأخيرة من الله الذي هو رب كل من موسى وعيسى ومحمد. كما يؤكد القرآن الرسائل السابقة التي أرسلها إلى موسى وعيسى حيث جاء فيه:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ

هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ [المائدة] .

وجاء مرة أخرى في القرآن:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣] .

فالمسلمون يعتبرون أنفسهم أبناء إبراهيم، الذي هو واليهود والنصارى من (>أهل الكتاب< الذين أرسل الله إليهم رسالاته) ويمثلون جميعهم فروعًا مختلفة لدين واحد. فالقرآن توراة اليهود أو العهد القديم يخبران قصة إبراهيم وزوجته سارة وخادمته المصرية هاجر؛ حيث يعتبر المسيحيون واليهود أنفسهم من نسل إسحاق بن إبراهيم وسارة، أما المسلمون فينتهي أثرهم إلى إسماعيل الابن الأول لإبراهيم وهاجر.

والأسماء الإسلامية الشائعة مثل إبراهيم المعروف عندنا باسم (إبراهام)، وموسى، وداود أو (دافيد)، وسليمان (سولومون)، وعيسى (المسيح)، ومريم أو (ماري) تعتبر دليلا على أهمية الشخصيات المذكورة في الإنجيل بالنسبة للمسلمين. فالمسيحيون غالبًا ما يدهشون حين يعرفون أن المسيح مذكور في القرآن أكثر مما ذكر النبي محمد نفسه، وأن السيدة مريم مذكورة في القرآن أكثر من عدد المرات التي ذكرت فيها في إنجيل العهد الجديد. فكل من المسيح والسيدة مريم ليس لهما دور مهم فقط في القرآن ولكن أيضًا في معتقدات المسلمين الدينية. ففي الحقيقة، علق أحد زملائي المسلمين الذي كان غاضبًا بشدة حين رأى الرسومات الكاريكاتورية الدنماركية التي تصور النبي محمدًا كإرهابي قائلا: >من المضحك أننا لا نستطيع أن نرد لهم ما فعلوه لنا لأن أنبياء اليهود والمسيحيين هم أنبياؤنا أيضًا ونحن نحبهم ونحترمهم!<.

كما يتعلم الأطفال المسلمون الكثير من القصص الدينية عن آدم وحواء، وسفينة نوح، والوصايا العشر، وداود وسليمان، وعيسى ومريم، مثلهم في ذلك مثل الأطفال المسيحيين الذين يتعلمون أيضًا القصص نفسها ولكن أحيانًا بروايات مختلفة عن تلك التي يتعلمها المسيحيون. فمثلا، حواء لم تُذكر في القرآن كامرأة غاوية غوت آدم فأخرجته من الجنة، ولكن آدم وحواء كلاهما عصى الله، وكلاهما يتحمل مسؤلية عصيانه، كما لم تكن نتيجة عصيانهما >الخطيئة الأولى< التي سترثها الأجيال القادمة من بعدهم، كما ورد في مثال آخر في القرآن في [سورة الصافات: الآيات من ٩٩:١١٣] أن الله اختار إسماعيل الابن الأول لإبراهيم بدلًا من إسحاق ليطلب الله من إبراهيم أن يفتديه وورد هذا أيضًا في [سفر التكوين: ١-٢].

وانتسابك إلى الإسلام يعطيك هوية مجتمعية ومسئولية خاصة. فالمسلمون من جميع الأجناس والأعراق- والثقافات- هم جزء من مجتمع عالمي متعدد الجنسيات يضم كافة المؤمنين جميعًا في كلمة واحدة هي >الأمة الإسلامية< تلك الأمة المسئولة عن إقامة العدل في الأرض. لذا فالسؤال الحاسم الذي يسأله المسلمون كما يسأله أصحاب أي ديانة أخرى هو: >كيف أعرف الطريق إلى الله؟ وكيف أتبعه؟ وماذا يريدني الله أن أفعل؟<. إن الكلمة التي ذكرها القرآن >الطريق المستقيم< أسفرت عن نشأة الشريعة الإسلامية، وهي ذلك (الطريق) أو القوانين الإسلامية.

الشريعة الإسلامية : المرشد الأخلاقي أم مصدر للكبت؟

القوانين الإسلامية أو (الشريعة) عادة تصور على أنها نظام قانوني من العصور الوسطى يستخدمه المتدينون المتعصبون لقمع النساء وإنكار حقوق الإنسان سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، وهناك أسباب مقنعة لهذا التصور، فالقانون الإسلامي في بلاد مثل السعودية، وإيران، والسودان، ودولة طالبان في أفغانستان يتم استخدامه للحد من حقوق النساء، وإصدار الأوامر لرجم النساء اللاتي يرتكبن الزنا، وقطع أيدي السارقين، واتهام أي مسلم يرغب في اعتناق أي دين آخر بالارتداد.

ولكن لماذا يعتبر العديد من المسلمين الشريعة جزءًا جوهريًّا من عقيدتهم إلى أقصى الحدود؟ كما أننا إذا تمعنا أكثر في هذا الأمر سيتبين لنا أن الشريعة لها أكثر من معنى. فلقرون عديدة أثبتت الشريعة أنها يمكن أن تعمل كمصدر إيجابي للإرشاد في العديد من دول العالم الإسلامي، وكقانون ذي قيم ومبادئ تشكل مصدرًا لتوجيه الأفراد والمجتمعات. وينعكس هذا بوضوح في الاستفتاء العالمي الذي أجراه مركز جالوب عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، والذي وجد أن غالبية عظمى من المسلمين نساءً ورجالًا في العديد من البلدان الإسلامية ما بين مصر إلى ماليزيا- ترغب أن تكون الشريعة هي المصدر الرئيسي للقانون.

وتدور المناقشات بشأن هذا الموضوع في بلاد مثل العراق وأفغانستان حول تشكيل دستور جديد تكون الشريعة فيه مصدرًا للقانون. فالخوف من الشريعة على أنها مصدر للتشدد، والعقاب، والقمع- كان مترسخًا في أذهان حكومة بوش وبعض العلمانيين من العراقيين الذين كانوا يعارضون وجودها بشدة. فالسفير بول بريمر في عام ٢٠٠٤ عارض بشدة وجود أي دور للشريعة في الدستور المؤقت في العراق حيث يرى الشريعة على أنها مرادف لتحكم الدين في الحكم، وقمع النساء، وإلغاء حقوق الإنسان. وصرح قائلا: >إن موقفنا واضح، لا يمكن لأي قانون أن يصبح قانونًا إلا إذا صدقت عليه أنا<[٦١] أما دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع فقد خلط بين فكرة إدخال الشريعة في الدستور العراقي والحكم الديني للدولة؛ حيث حذر قائلا: >إن الولايات المتحدة لن تسمح بأن تصبح العراق دولة يحكمها الدين مثل إيران<[٦٢].

ويسهل علينا فهم هذه الرغبة للتقيد بالشريعة إذا علمنا أنه في مناطق كثيرة حول العالم يشترك العديد من المسلمين مثلهم مثل المسيحيين المحافظين (الكاثوليك والبروتستانت)، في الخوف من أن تؤثر العلمانية الحديثة على الدين والقيم العائلية. فهم يرون العلمانية مفسدة لأخلاقيات الأفراد والمجتمع، ومضعفة لمؤسسة الزواج، وتؤدي إلى انتشار الطلاق، والاختلاط، والاختلال العائلي، وإدمان الكحول والمخدرات. وليس علينا أن نذهب بعيدًا عن وطننا؛ حيث إن هناك أمريكيين تتشابه اتجاهاتهم مع المسلمين حين يتعلق الأمر بدور الدين في القانون والمجتمع. فالعديد من الأمريكيين يرغبون أن يكون الإنجيل هو مصدر التشريع في البلاد: فترى نسبة ٤٤% من الأمريكيين أن الإنجيل ينبغي أن يكون >أحد< المصادر للتشريع، أما ٩% فيرون أنه يجب أن يكون المصدر >الوحيد< للتشريع. والأكثر من ذلك أن نسبة ٤٢% من الأمريكيين يرغبون أن يكون لرجال الدين دور في وضع وكتابة الدستور[٦٣]. وبالمثل يرغب العديد من المسلمين في مزج الديمقراطية بالشريعة، وألا تعتمد الديمقراطية تمامًا على القيم الغربية.

فالقانون الإسلامي يقدم مخزونًا من المبادئ والقيم التي جعلت لتجيب عن هذا

السؤال: >ماذا يجب على المسلم الجيد أن يفعل؟< مثل رجال اللاهوت المسيحيين والأحبار اليهود، فالعلماء المسلمون هم المفسرون والمعلمون والحافظون للدين الإسلامي، وهم الذين كرسوا حياتهم للدراسة والمناقشة وتطوير الأوامر الإلهية للمجتمعات الإسلامية. فالشريعة الإسلامية مهمة بشكل خاص بالنسبة للمسلمين مثلما القوانين اليهودية مهمة لليهود؛ لأن الإسلام مثله مثل الديانة اليهودية، وعلى عكس الديانة المسيحية، ليس لديه سلطة مركزية دينية مثل >الكنيسة<، أو شخص كالبابا ليقرر ماذا يعتقد الناس أو ماذا يفعلون. وسبب آخر هو أن اليهودية والإسلام يميلان إلى الارتكاز على الشرائع والقوانين بينما تعتمد المسيحية على التعاليم والمعتقدات.

فالقانون الإسلامي تم تطويره ليعمل كمخطط متكامل لمجتمع إسلامي نموذجي. فهو يحدد الواجبات الدينية التي يجب على المسلم أن يؤديها تجاه الله مثل الصلاة، والصيام، والزكاة، والالتزامات الدينية، بالإضافة إلى المعاملات الاجتماعية الأخرى مثل الزواج، والطلاق، والميراث، وعقود العمل، والقضايا السياسية بما في ذلك حالات الحرب والسلم.

وأركان الإسلام الخمسة تمثل المرشد الأخلاقي للمسلم، وهي تعد المتطلبات الأساسية التي يجب على المسلمين مراعاتها سواء أكانوا سنة أم شيعة. وبالرغم من كل الاختلافات العرقية والثقافية والقومية بين المسلمين فتلك الأركان تقدم وحدة أساسية وجوهرًا للإيمان والتطبيق وأساسًا قويًا من أجل الفهم المشترك لليهود والمسيحيين والمسلمين.

ثلاثة ليسوا إلهًا ولكن (الله) واحد إعلان الإيمان :

نحن الكاثوليك علينا أن نكافح كطفل لنتذكر أسس عقيدة نيسين، ولكن ما أدهشني كثيرًا أن أعرف أنه لكي تصبح مسلمًا ليس عليك سوى الإقرار بالعبارة التالية: أشهد ألّا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. فهذه العبارة تسمى >الشهادتين< وهي العبارة الأساسية في عقيدة المسلمين. وهي تتكرر مرات عديدة كل يوم في الأذان للصلاة، وتمثل الشهادتان اثنين من أهم العوامل الأساسية للإسلام: الأول: التوحيد المطلق والإيمان بالله الواحد فقط، وأنه لا معبود سوى الله، وليس الجاه والمال أو الطموح أو النفس، وإذا قدس المسلم أي شيء أو أي شخص سوى الله فإنه يعتبر مشركًا، وهو الذنب الذي لا يغتفر عند الله. فالاعتقاد الذي لا يتسامح فيه الإسلام هو الوحدانية أو التوحيد لله، وينعكس ذلك في الفن الإسلامي وخاصة في العالم العربي. فإشراك أي شيء مع الله يعتبر وثنية. ولتجنب هذا لا يجب تصوير الأشكال البشرية، فمثلًا يميل الفن الإسلامي إلى استخدام الخط، والأشكال الهندسية، والتصميم الزخرفي أو الأرابيسك، والذي غالبًا ما يكون تجريديًا أكثر منه تمثيليًا.

أما العامل الأساسي الثاني في الإسلام فيتركز على أهمية الإيمان بالنبي محمد وبأنه خاتم الأنبياء والمرسلين من الله، وهو القدوة لأي مسلم في حياته. ومحمد صلى الله عليه وسلم يعد من أعظم الشخصيات على مر التاريخ. فلقد كان من القليلين الذين كان لهم تأثير ديني وسياسي كبير على المستوى العالمي، ومع ذلك كان من أكثر الأنبياء الذين تم التشهير بهم وتشويه سمعتهم. فالعبارات المتعصبة والباطلة (غير المسيحية بالطبع) التي يقولها بعض قادة اليمين المسيحي ليست شيئًا جديدًا. فهي جزء من موروثات منذ مئات السنين، كان خلالها المسيحيون مهددين بانتشار دين الإسلام واتساعه سياسيًا، ويرفضون الاعتراف بنبوة محمد، ودعوه بالدجال، والفاسق، والمغتصب، والسكير، كما أسموه بالمرتد عن الكاثوليكية الأصلية، وتم تصويره على أنه المسيح الدجال، أو كما قال مارتن لوثر على وجه

التحديد: >ابن الشيطان<. فالنقاد في السابق وحاليًا يقارنون بين محمد >النبي المحارب< وبين المسيح >أمير السلام<. وهم في عجلتهم لإصدار الأحكام يتجاهلون بقصر نظرهم الأنبياء الموجودين في تقاليدهم نفسها والذين كانت لهم أدوار مماثلة، أي: كانوا أنبياء محاربين من الإنجيل مثل: داود، وشاول، وسليمان (ويعتبرون جزءًا من كل من الديانتين: المسيحية واليهودية) بالإضافة إلى العديد من القساوسة والأباطرة المسيحيين الذين استخدموا أو أطلوا الحروب العسكرية بل وربما الحروب الصليبية، باسم الله.

فهذا الحط من قدر محمد من قبل البعض يشكل تناقضًا شديدًا بالنسبة للإجلال الذي يبديه ملايين المسلمين لورع ونزاهة وقيادة النبي محمد على مر التاريخ. فمحمد مثل عيسى بالنسبة للمسيحيين يعد النموذج الأول الذي يقتدي به المسلمون، ولكن على عكس عيسى، فالمسلمون يؤمنون بأنه بشر فقط، وليس إلهًا. وأن حياته كزوج، وأب وصديق مثالي تقدم الإرشاد للمسلمين في حياتهم، وهو أيضًا القائد السياسي والعسكري النموذجي، كما أنه الدبلوماسي والقاضي أيضًا. وهناك مجلدات ضخمة من الروايات القصصية تسمى >الحديث< التي تروي أقوال وأفعال النبي محمد: كيف كان يعامل أصدقاءه وأعداءه، وكيف كان يتصرف مع رؤساء الدول ومع الخدم، وكيف عامل زوجته وأبناءه، وكيف كان يقود المعارك بنفسه.

فالنبي محمد أثناء حياته، وحتى اليوم كان يُرى على أنه >قرآن حي< على مر التاريخ الإسلامي، وتجسيد لأوامر الله في سلوكه وأقواله. والمسلمون السنيون (الذين يمثلون ٨٥% من مسلمي العالم) أخذوا اسمهم من كلمة السنة، والتي تعني الاقتداء بالنبي محمد. فتبجيل المسلمين للنبي محمد يفسر لماذا يطلق الكثير من المسلمين على أنفسهم اسم محمد أو أسماء مشتقة من ذلك الاسم مثل (أحمد، محمود، وأمين).

ومعرفة الدور المهم الذي يلعبه النبي محمد ومكانته يساعدنا على إدراك الاستياء المنتشر، والشعور بالذل والغضب من عامة المسلمين، وليس فقط المسلمين المتشددين بسبب التشويه لسمعة النبي محمد والدين الإسلامي.

الصلاة:

إن تأدية الصلاة أو العبادة في أوقات محددة من اليوم يوجد في العديد من الأديان. ففي اليهودية القديمة كانت الصلوات والقرابين تقدم في ساعات معينة من النهار والليل؛ حيث ورد في المزامير اليهودية [١١٩:١٦٤]: >سبع مرات في النهار سبحتك، على أحكام عدلك<. وقام المسيحيون بتطوير الساعات المقدسة والصلوات الإلهية. فقرع الأجراس لا يدعو فقط الكاثوليكيين لحضور القداس، ولكن أيضًا يشير إلى تلاوة صلوات الساعات، والتي كانت تُتلى أو يُترنم بها سبع أو ثماني مرات ثابتة في اليوم والليلة.

ويؤدي المسلمون الصلاة خمس مرات في اليوم: قبل شروق الشمس، وفي الظهيرة، ومنتصف الظهيرة، وعند غروب الشمس، وفي الليل. ومثل العديد من زوار البلدان الإسلامية، عندما عشت في الشرق الأوسط للمرة الأولى أصبت بالدهشة من الامتثال الجماعي والفردي لأوقات الصلاة. فكنت أنظر من نافذة منزلي في القرية اللبنانية التي كنت أعيش فيها لأرى فلاحًا ساجدًا في الحقل، أو ألمح من نافذة سيارتي السائقين يوقفون سياراتهم وشاحناتهم على جانب الطريق لتلبية نداء الصلاة. وهذا التذكير بالصلاة يصدح به المؤذنون على المآذن ويتردد عبر المدن والقرى: >الله أكبر الله أكبر... أشهد ألا إله إلا الله... أشهد أن محمدًا رسول الله... حي على الصلاة<.

ومؤخرًا، تعود ذكرياتي عن أوقات الصلاة في زمننا هذا عندما كان يوصلني بعض المسلمين الشباب إلى قاعة المحاضرات في إنجلترا وتوقفوا عند مكدونالدز ليبحثوا عن مكان هادئ لتأدية الصلاة فيه، أو عندما يترك المسافرون في مطار هيثرو في لندن أو مطار واشنطن دالاس- حديثهم معنا ليذهبوا إلى غرفة الصلاة بالمطار، أو يعتذروا ليبحثوا عن مكان يصلون فيه في خفاء في ركن هادئ من المطار. أما اليوم فغالبًا ما يعتمد المسلمون على منبهات تذكرهم بأوقات الصلاة، والتي تنشر تقريبًا في جميع الصحف الإسلامية أو على شبكة الإنترنت. كما يقومون بضبط ساعات اليد لتدق عند أوقات الصلاة، وكان اليابانيون أول من استحوذ على السوق بالأفكار الجديدة: مثل اختراعهم الساعة التي تشبه المسجد بداخلها شريط مسموع يبدأ بزقزقة العصافير وصوت خرير المياه، والذي يشير إلى الوضوء (والتطهر للاستعداد للصلاة)، يليه صوت المؤذن للصلاة، كما تقدم غرف الفنادق للمسلمين سجادات الصلاة، ومصحفًا، ومؤشرًا لاتجاه القبلة، وهو سهم مرسوم على سطح أو طاولة يشير إلى البلد الحرام في الإسلام (مكة) الموجودة في السعودية، والتي يتجه إليها المسلمون دائمًا عندما يقومون بالصلاة.

وليس عجيبًا أنه مثل العديد من المتدينين- يعتبر المسلمون الصلاة جزءًا أساسيًّا ورئيسيًّا من حياتهم؛ حيث أجاب عدد كبير من المسلمين حول العالم بأنهم يصلون ليس فقط لأن الصلاة فرضت عليهم، ولكن أيضًا لأنها تشعرهم بالقرب من الله وأنها مصدر للراحة. وكما قال أكثر من الثلثين في بلدان متفرقة مثل المغرب (بنسبة ٨٣%)، وباكستان (بنسبة ٧٩%)، والكويت (بنسبة ٧٤%) وإندونيسيا (بنسبة ٦٩%) ولبنان وإيران (بنسبة ٦٨%) بأن الصلاة تساعدهم بشكل كبير في تهدئة مخاوفهم وقلقهم الشخصي(٦٤).

وجعل نسيان تاريخ أوقات الصلاة خلال اليوم عند اليهود، أو ساعات الصلاة عند الكاثوليك الكثير من الأمريكيين يعبرون عن اندهاشهم من صلاة المسلمين، والتي يعتبرونها مبالغًا فيها ومضيعة للوقت. >خمس مرات في اليوم يبدو كثيرًا< هذا ما اعترف به رجل أعمال أمريكي أثناء ورشة عمل حول إقامة أعمال تجارية في البلدان الإسلامية. ورد عليه مستشار إداري أمريكي، وهو مسلم ملتزم أيضًا، قائلا:

>كم عدد المرات التي يأكل فيها الناس في مجتمعنا المرفه؟ ينصح خبراء التغذية بثلاث وجبات ووجبتين خفيفتين، ولكن إذا كنت شابًا مراهقًا فإنك تأكل ما يشبه خمس وجبات وعشر وجبات أخرى خفيفة. حسنًا فالإسلام يرى الإنسان ليس فقط كجسد، ولكن ككيان روحي أيضًا، ومثلما تتطلب احتياجاتنا الجسدية التغذية المستمرة خلال اليوم، فإن أرواحنا مطالبة بذلك أيضًا. فأنا أصلي صلاة الصبح قبل الذهاب إلى العمل، وأصلي صلاتي الظهر والعصر في مكتبي أثناء استراحة الغذاء وفي استراحة لعشر دقائق بعد الظهر. أما صلاتان الآخريان فأؤديهما في المنزل؛ واحدة في بداية المساء وواحدة قبل الذهاب للنوم وهي مثل خمس وجبات صغيرة للروح. وبصراحة لا أستطيع أن أتخيل متابعة عملي المحموم وحياتي الأسرية دون الاتصال الدائم مع الله<(٦٥).

صيام رمضان:

إذا كانت تأدية الصلاة خمس مرات في اليوم يعتبرها البعض شيئًا صعبًا، فماذا عن عدم الأكل، أو الشرب، أو التدخين، أو الجماع، والحفاظ على هدوء أعصابك من الفجر إلى الغسق لمدة شهر كامل؟! هل يعد ذلك ملهمًا، ورائعًا، أم تشددًا، وجنونًا؟! ففي عالمنا الدنيوي المادي، يرى البعض مثل هذا التقشف والزهد تشددًا، بل ويعتبرونه ضارًا. ومع ذلك فنحن نعيش في مجتمع حيث الأنظمة الغذائية القاسية وممارسة التمارين الرياضية، والمحافظة على الوزن، والموت في سبيل الحصول على جسد متناسق- هي صناعة تقدر بالبلايين من الدولارات.

فالسباقات الشاقة والرياضات الثلاثية والعمل لمدة ١٢ إلى ١٨ ساعة يوميًا- غالبًا ما نردده في شعاراتنا >لا ألم، بلا ربح<.

بالنسبة للمسلمين، شهر رمضان هو وقت للنظام الجسدي والروحي: فالتحكم في الشهوات، والقيام بالأعمال الصالحة من أجل الفقراء، وتخصيص المزيد من الوقت للصلاة والتركيز على العبادة والانسلاخ عن الضعف البشري والاعتماد على الله وحده هو ما يركز عليه المسلمون في هذا الشهر. ومن العجيب أن العديد من المسلمين غير الملتزمين دينيًا طوال العام يقومون بهذا الصيام الجماعي في شهر رمضان.

فصيام رمضان هو نشاط عائلي ومجتمعي؛ حيث يجتمع الأصدقاء والعائلة معًا للإفطار عند الغروب. ويذهب الكثيرون إلى منازلهم ليكونوا مع عائلاتهم خلال هذا الشهر. وفي المساء يلتقي الكثيرون ويتعاونون في قراءة القرآن معًا، حتى يتموه كاملا في نهاية الشهر. وإذا ذهبنا إلى الدول الإسلامية، يستطيع المرء أن يرى أن المخطوطات والعلامات في المصحف توضح أن القرآن مقسم إلى ثلاثين جزءًا، وهذا يساعد على التدريب لقراءة جزء من القرآن كل ليلة. وقراءة القرآن تنقل من يقرؤه إلى عالم الإيمان تمامًا كما نقلت النبي محمدًا من كونه تاجرًا بمكة إلى أن يصبح نبيًا مرسلا من الله.

وكما جاء في القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء].

وينتهي رمضان بواحد من أكبر الأعياد الإسلامية، وهو عيد الفطر. ويماثل الاحتفال بعيد الفطر احتفال رأس السنة عند المسيحيين في بهجته، وتميزه، وتبادل الهدايا فيه. ويأتي أفراد العائلة من كل مكان ليحتفلوا معًا لعدة أيام وأحيانًا لأسابيع. والمسلمون في الغرب (مثل اليهود في الماضي) يواجهون تحديات كبيرة في المحافظة على أعيادهم الدينية؛ حيث لا تعترف الكثير من المدارس وأماكن العمل بهذه الأيام المقدسة لدى المسلمين. ولكن هذا الموقف آخذ في التغيير.

الزكاة:

هذا الركن من أركان الإسلام هو -كما درج القول- باب المسلمين إلى الجنة. فالعدالة الاجتماعية، وخاصة الاهتمام بالفقراء، والأيتام، والأرامل، وبأفراد العائلة هو موضوع رئيسي في القرآن. والقرآن يرفض من يقولون: إن الفقراء يجب أن يظلوا كذلك ويتركوا إلى مصائرهم؛ لأن الله أرادهم أن يكونوا كذلك. فمثل ضريبة العشر في الديانة المسيحية، يطلب الإسلام من أتباعه أن يساعدوا أفراد المجتمع غير المقتدرين ماليًا. ولكن على عكس ضريبة العشر، فالزكاة عند السنيين المسلمين هي ضريبة على الأموال والثروات، تطلب من المؤمن أن يعطي ٢,٥% من أصول ممتلكاته السائلة كل عام. وليس ببساطة جزء من دخله (مع العلم أن الشيعة يحسبون الزكاة بشكل مختلف). فالزكاة ليست صدقة تطوعية أو إحسانًا، ولكنها فريضة لتطهير مال الإنسان (حيث إن أصل كلمة زكاة في اللغة العربية هو التطهير). وبما أن المالك الأصلي لهذه الأشياء هو الله وليس الرجال أو النساء، فالزكاة هي نصيب مطلوب من الثروة التي أعطاها الله للمسلمين كخلفائه في الأرض ليكونوا مؤتمنين عليها. ويعلق عالم مسلم مشهور على المرات العديدة التي ربط فيها القرآن بين كلمتي >الصلاة والزكاة< قائلا:

>أما الصلاة فتمثل حق الله علينا، في حين أن الزكاة تمثل حقوق العباد علينا التي فرضها الله لنا. وبالربط بين >الصلاة< و>الزكاة< يذكرنا ذلك باستمرار بأن

الإسلام ليس دينًا مهتمًا فقط بتأدية حقوق الله التي فرضها علينا فقط، ولكن أيضًا يعطي أهمية لحقوق الآخرين علينا> [٦٦].

الحج إلى مكة :

من الصعب المبالغة في تقدير رغبة المسلمين الشديدة في أداء فريضة الحج إلى مكة. فبالرغم من التنوع الثقافي الهائل بين البلدان الإسلامية في العالم والسكان القليلين من المسلمين في أوروبا، وأمريكا الشمالية، وحول العالم، فهناك نشاطات معينة تجمع الأمة الإسلامية كلها، فمثلما يجتمع المسلمون خمس مرات في اليوم ليتوجهوا إلى مكة في صلاتهم، وهي المدينة التي ولد فيها النبي محمد، يسافر أيضًا كل عام أكثر من مليوني مسلم من جميع أنحاء العالم إلى تلك المدينة المقدسة ليؤدوا الركن الخامس من أركان الإسلام وهو الحج.

ففي الحج يشترك المسلمون رجالًا ونساء في أداء تلك الشعائر المقدسة. فليس هناك تفرقة جنسية في ذلك المكان المقدس، مرتدين ملابس بسيطة كرمز إلى الطهارة، والمساواة، مكررين الأحداث الدينية المهمة؛ حيث تطوف هذه الجموع حول الكعبة، (وهي بناء مكعب الشكل يعرف بأنه بيت الله)، وهي أكثر الأماكن المقدسة في العالم. وهذا الطواف يشبه الصلاة؛ حيث يمثل اتصالًا روحيًا مع الله. وفي شعيرة أخرى من شعائر الحج يكرر المسلمون البحث المحموم الذي قامت به السيدة هاجر عن الماء لابنها إسماعيل حينما كانت تائهة في الصحراء، متذكرين كفاح البشر في الحياة، وقبيل انتهاء الحج يجتمع المسلمون عند جبل عرفات؛ إحياء لذكرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم في حجته الأخيرة وخطبة الوداع التي ألقاها على قومه في ذلك اليوم.

وهؤلاء الذين أدوا فريضة الحج لا يستطيعون وصف تلك التجربة المذهلة حين يجتمع مليونا مسلم في الصلاة معًا، كلهم سواسية، في جو روحاني، يجمعهم شيء أكبر من وجودهم نفسه. ويرى الكثيرون ذلك على أنها تجربة ترمز إلى استعدادهم ليوم الحشر، حين يأتي البشر جميعهم إلى خالقهم يوم الحساب.

وقد كان للحج أثر كبير على الأمريكي الأفريقي مالكولم إكس؛ حيث قاده الوقت الذي قضاه في الحج إلى تحول وإدراك جديد في فهمه للأخوة الإنسانية؛ حيث يقول شارحًا:

<لقد كان هناك عشرات الآلاف من الحجاج، من جميع أنحاء العالم، ومن جميع الألوان، بدءًا من الشقر ذوي العيون الزرقاء، إلى الأفارقة أصحاب البشرة السمراء، ولكننا كنا جميعا نشترك في أداء الشعائر نفسها، مظهرين روحًا من الوحدة والأخوة التي من خلال تجربتي في أمريكا جعلتني أعتقد أنه لا يمكن أن توجد مثلها بين البيض وغيرهم من غير البيض> [٦٧].

وفي نهاية أيام الحج يحتفل المسلمون حول العالم بعيد الأضحى محيين في ذلك ذكرى إرسال الله بكبش فداء عظيم لإسماعيل بن إبراهيم، حين أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه، وفي هذا الاحتفال الكبير يجتمع المسلمون معًا لتبادل الزيارات والهدايا، مثلهم في ذلك مثل المسيحيين واليهود في الاحتفال بعيد هانوكا.

الجهاد- القتال في سبيل الله :

أحيانًا يشار إلى الجهاد على أنه الركن السادس من أركان الإسلام، بالرغم من عدم كونه فعليًا أحد أركان الإسلام. وتأتي أهمية الجهاد في أمر القرآن بالقتال في سبيل الله (وهو المعنى الحرفي لكلمة الجهاد)، وفي الاقتداء بالنبي وأصحابه السابقين. والجهاد بمعناه العام يشير إلى الفريضة التي فرضها الله على جميع المسلمين، أفرادًا وجماعات لاتباع وتطبيق شريعة الله؛ ليحيوا حياة شريفة،

ويوسعوا رقعة المجتمع الإسلامي من خلال الدعوة إلى الله، ونشر العلم، والقدوة الطيبة، ونشر رسالة الإسلام. وفي ظل الظروف التي يعيشها الفرد فإنه يمكن أن يعني أيضًا محاربة الظلم والقمع، ونشر الإسلام والدفاع عنه، وتشكيل مجتمع عادل من خلال الدعوة إلى الإسلام وتعليمه، بالإضافة إلى القتال المسلح للدفاع عن الإسلام ولرد الاعتداء عنه إذا دعت الضرورة لذلك. وعلى مر التاريخ كانت الدعوة إلى الجهاد للدفاع عن الإسلام فقط.

وهذان التفسيران لمعنى الجهاد سواء بالسلاح أو بدونه، شرحه القول النبوي المعروف، حين كان محمد يعود من المعركة فيقول لأصحابه: >رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر<. فالجهاد الأكبر هو الأكثر صعوبة والأكثر أهمية، وهو جهاد النفس، ضد أطماعها، وأنانيتها، وشرها.

وعلى هذا فالجهاد هو مفهوم متعدد المعاني، تم استخدامه بشكل جيد أو بشكل سيئ عبر التاريخ. وبالرغم من أن >الحرب المقدسة< لا يمكن ربطها أو مساواتها بأي شكل من الأشكال بكلمة >الجهاد< التي وردت في القرآن، فقد كان القادة المسلمون على مر التاريخ - يؤيدهم في ذلك علماء الدين- يستخدمون الجهاد المسلح لتشريع الحروب من أجل التوسع في الإمبراطورية الإسلامية. كما لجأت الطوائف المتشددة قديمًا إلى الإسلام لتشريع الثورات، والاغتيالات، ومحاولات إسقاط الحكام المسلمين عن الحكم. وفي السنوات الأخيرة، عاد المتشددون المسلمون والإرهابيون إلى القول بأن الجهاد فريضة عالمية، وأن المسلمين الحقيقيين يجب أن يشاركوا في الجهاد ليعلنوا الثورة الإسلامية.

والآيات القرآنية التي تتحدث عن المشاركة في >الدفاع< أو الجهاد، لم تنزل إلا بعد وقت قصير فقط من هجرة النبي وأصحابه من مكة إلى المدينة حين هربوا من اضطهاد المشركين لهم، وكانوا في هذا الوقت مجبرين على القتال للدفاع عن حياتهم، وقد أخبر الله محمدًا في القرآن قائلا: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج]. كما يؤكد القرآن طبيعة الجهاد الدفاعية في سورة البقرة قائلا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة]. وفي المسائل التي تحتاج إلى فصل يتلقى محمد الوحي من الله ليرشده حول هذا الموضوع.

ونظرًا لازدياد المجتمع الإسلامي، فقد برزت تساؤلات عديدة حول كيفية سلوك النبي أثناء فترات الحروب. والقرآن من جانبه قدم إرشادات وقوانين مفصلة فيما يتعلق بمسائل إدارة الحروب: مثل مَنْ مِن المسلمين مكلف بأن يحارب؟ ومن معفى من ذلك؟ كما جاء في [سورة الفتح:١٧] و[سورة التوبة: ٩١]، ومتى يجب وقف القتال أو إنهاؤه؟ وذلك في [سورة البقرة: ١٩٢]، وكيفية معاملة الأسرى [محمد: ٤]. ومن أكثر الآيات أهمية تلك التي تخبر المسلمين أن شن الحروب أو رد العدوان يجب أن يكون متناسبًا مع حجم ومقدار من بدأ العدوان أولًا، وذلك في [سورة البقرة: ١٩٤]: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] .

وطبقًا للشريعة الإسلامية، فإنه لكي تعتبر أي حرب مبررة أخلاقيًا، يجب أن تكون دفاعًا عن الدين. وهناك العديد من الشروط الأخرى الصارمة التي يجب

تطبيقها أثناء الحروب مثل: عدم جواز شن أي حرب من أجل الربح المادي أو امتلاك الأراضي؛ وأهمية المحافظة على حقوق المدنيين، وأمنهم، وحريتهم ، واحترام ممتلكاتهم، بالإضافة إلى عدم قتل النساء، والشيوخ والأطفال؛ وتحريم تعذيب الأسرى أو التنكيل بهم، وعدم هدم أماكن العبادة أو قتل رجال الدين.

ومن ناحية أخرى شددت الآيات القرآنية على اعتبار أن السلم هو الأساس وليس العنف والحرب. وجاءت الآيات التي تدعو إلى محاربة الأعداء مساوية مع تلك التي تدعو إلى عقد الصلح معهم مثل: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنفال:٦١] وفي آية أخرى في القرآن: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾ [النساء].

ولكن انتشرت الكثير من الأقاويل عن >آيات القتال<، ومنها هذه الآية: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة:٥]. التي يستشهد بها العديد من النقاد ليشيروا إلى العنف الموجود في طبيعة الإسلام وفي نصوصه القرآنية. كما استخدم بعض المتطرفين من المسلمين هذه الآية بعينها (أو بالأحرى أساءوا استخدامها) لإنشاء >دين من الكراهية< وعدم التسامح، وليشرعوا شن الحرب على غير المسلمين جميعًا.

وفي أوقات الغزوات والتوسعات في الدولة الإسلامية، كان العديد من العلماء المسلمين الذين يتمتعون بسلطة ملكية، يقدمون أسبابًا مقنعة إلى رعاياهم حول قيامهم بهذه التوسعات، سواء لتحقيق طموحاتهم أو لتوسيع حدود الامبراطورية الإسلامية، كما كانوا يدركون أن الآيات القرآنية التي تتحدث عن >القتال< تلغي أو تبطل الآيات السابقة التي حددت الجهاد بكونه حربًا للدفاع عن الإسلام فقط. وفي حقيقة الأمر، فإن المعنى الحقيقي والغرض من وراء الآية السابقة في سورة [التوبة: ٩] يتم تشويهه كلية حين يطبق على غير المسلمين فقط، حيث أن الآية كانت تشير تحديدًا إلى مشركي مكة، الذين نكثوا العهد وشنوا الحرب على المسلمين، علمًا أنه في التعقيب الذي جاء في نفس الآية مباشرة قال: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾[التوبة] .

السنة والشيعة – فروع متعددة لدين واحد:

إن الإسلام كأي دين آخر يضم العديد من الفروع والطوائف الدينية. وتلك الاختلافات الدينية يمكن أن يكون لها الكثير من المعاني والتأثيرات السياسية والاقتصادية وكذلك الدينية المهمة. وتجاهلنا لمثل تلك القضايا الدينية يمكن أن تكون عواقبه وخيمة. فلقد كانت قدرتنا على التوقع والتخطيط لإستراتيجية ناجحة بعد غزو العراق، وللحد من- بل واحتواء- الخلاف الطائفي، والمساعدة في إنشاء نظام ديمقراطي فعال، بالإضافة إلى التحكم في الديون التي بلغت بلايين الدولارات متوقفًا على إدراكنا وفهمنا للقوى الدينية والاجتماعية المؤثرة. فالخلاف بين السنة والشيعة في العراق قضى على الكثير من الأرواح، وهدد بتقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة متنافسة، وأدى إلى استفحال العلاقات بين الشيعة في إيران وبين السنيين في السعودية ودول الخليج الأخرى. ولكن بعد سنوات من غزو واحتلال العراق، ظل المسئولون الأمريكيون جاهلين بالحقائق الرئيسية.

ففي عام ٢٠٠٧، سُئل قادة الكونجرس المسئولون عن مكافحة الإرهاب، وكان بعضهم أعضاءً في لجان الكونجرس الرئيسية التي كانت تشرف على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، عن الفرق بين مسلمي السنة والشيعة. ومما يدعو إلى الدهشة أن قليلين منهم فقط استطاعوا التمييز بين الطائفتين الدينيتين – مع العلم أن ذلك حدث بعد عدة سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق بكل ما فيه من صراعات سياسية وعسكرية بين تلك الطوائف الدينية.

هل تستطيع التفرقة بين السني والشيعي؟

في عام ٢٠٠٥ أصيب جيف شتاين، محرر الأمن القومي في دورية الكونجرس ربع السنوية في واشنطن، بالدهشة حين مزح جون ستيوارت وممثلو الكوميديا الآخرون حول التصريحات التي جاءت في قضية الوشاة التي كشفت عن عجز مسئولين كبار في مكتب التحقيقات الفيدرالي عن الإجابة عن أسئلة بسيطة حول الإسلام. فهم لم يعترفوا فقط بجهلهم حول هذا الموضوع، ولكن الأدهى أنهم ادعوا أنهم ليسوا بحاجة إلى معرفة مثل تلك الأمور.

وفي عام ٢٠٠٦ سأل شتاين سؤالًا مشابهًا في مقابلات مطولة أجراها مع مسئولين في مكافحة الإرهاب وأعضاء الكونجرس وهو: >هل تعلمون الفرق بين السني والشيعي؟< وسألهم إذا ما كانوا يعرفون: >ما الجانب الذي يأخذه كل منهما؟ وماذا يريد كل منهما؟< هل تعلمون ماذا اكتشف؟- أن >معظم المسئولين الأمريكيين الذين قابلتهم، لم يكن لديهم أدنى فكرة<. هذا ما قاله شتاين بنفسه. وهذا لا يشمل فقط مسئولي المخابرات والمسئولين عن تطبيق القوانين، ولكن أيضًا أعضاء الكونجرس من أصحاب المناصب المهمة في مراقبة وكالات التجسس الأمريكية<.

عندئذ أشار ويلي هولون، رئيس الفرع الجديد للأمن القومي بمكتب التحقيقات الفيدرالي إلى أهمية معرفة الفرق بين السنة والشيعة، وذلك >لمعرفة من هو المستهدف<، ولكنه لم يكن قادرًا على معرفة ما إذا كانت العراق تنتمي إلى السنة أم الشيعة. وحين سُئل ما إذا كانت إيران وحزب الله من السنة أم الشيعة؟- أجاب خطأ أنهم من >السنة<. ولم يكن قادة الكونجرس بأفضل منه. فعندما سأل شتاين تيري إيفريت الممثل الجمهوري عن ولاية ألاباما، ثم نائب رئيس اللجنة الفرعية للمخابرات التكنولوجية والتكتيكية في مخابرات مجلس النواب: >هل تعرف الفرق بين السني والشيعي؟< كانت إجابته: >الأول في مكان واحد، والآخر في مكان ثان، لا، لأكون صريحًا معك؛ أنا لا أعرف<. وعندما أخبره شتاين عن بعض الاختلافات قال: >الآن وقد شرحت لي... يجعلني هذا أفكر أن ما نقوم به هناك مسألة شديدة الصعوبة، ليس فقط في العراق ولكن في المنطقة بأكملها<.

أما جو آن دافيس الممثلة الجمهورية عن ولاية فيرجينيا، والتي ترأست اللجنة الفرعية في مخابرات مجلس النواب التي تقوم بالإشراف على أداء المخابرات المركزية في توظيف الجواسيس وتحليل المعلومات، كانت لديها مشاكل مماثلة في الإجابة عن هذا السؤال. فعندما سئلت إذا ما كانت تعرف الفرق بين السنة والشيعة قالت: >أتعرف، ينبغي أن أكون عالمة بذلك< وكانت إجابتها: >أن السنة أكثر تشددًا من الشيعة أو العكس، ولكنني أعتقد أن السنة هم الأكثر تشددًا من الشيعة<.

إن تجارب شتاين في المقابلات جعلته يشدد على ضخامة وعظم هذه المشكلة قائلا: >بعض مسئولي وكالة الاستخبارات وأعضاء الكونجرس تمكنوا من فهم سؤالي بسهولة. ولكن كلما استمررت أكثر في السؤال، أحصل على المزيد من العبارات الفارغة. الكثيرون من مسئولي مكافحة الإرهاب ببساطة لا يهمهم أن يتعلموا الكثير، إن لم يهمهم أن يتعلموا أساسًا أي شيء عن العدو الذي تحاربه الولايات المتحدة<[٦٨].

إن معرفة منشأ مسلمي السنة والشيعة، والاختلافات التي أصبحت مصدرًا للصراعات بينهما، يساعدنا ذلك على فهم الأحداث الدينية والسياسية على مر التاريخ، وذلك منذ بداية تكون المجتمع الإسلامي وحتى التوترات والصراعات الحاصلة اليوم حول العالم. بالإضافة إلى الصراعات بين السنة والشيعة في العراق وباكستان، والخلافات الطائفية والحروب التي اشتعلت لمرات عديدة في لبنان، وباكستان، وأفغانستان، واليمن، والكويت، والبحرين، والسعودية. فدراسة جذور تلك الانقسامات والعداءات العميقة بين السنة والشيعة يعتبر ضروريًا لمساعدتنا في فهم مصدر الخلاف الطائفي اليوم.

يضم الإسلام طائفتين رئيسيتين هما: السنة وهم الأغلبية ونسبتهم (٨٥%) والشيعة وهم الأقلية ونسبتهم (١٥%). ولدى كل منهما معتقداته الخاصة التي تختلف عن الآخر، ووجهات نظره بالنسبة للأحداث التاريخية، وردود أفعاله تجاه الأحداث المعاصرة التي نتجت عن وفاة النبي محمد في القرن السابع الميلادي. فلقد شكلت وفاة محمد في عام ٦٣٢ هجرية صدمة تاريخية للمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت، حيث إن وفاته وضعت نهاية للإرشاد المباشر الذي كان النبي يقدمه لهم، وأيضًا نهاية لنزول الوحي من الله. وكان السؤال الذي لا يمكن تجنبه في ذلك الوقت: >من الذي سيخلف محمدًا ؟<.

فلقد زعم بعض أتباع النبي أن الخلافة يجب أن تكون في بيت آل النبي ، وأنها يجب أن تئول إلى ابن عمه وزوج ابنته علي بن أبي طالب-رضي الله عنه- وقالوا: إن النبي نفسه كان قد أشار بذلك. وبهذا نشأت جماعة شيعة علي (بمعنى: حزب علي)، أو الشيعة. أما غالبية المسلمين فكانوا يعارضون هذا الوضع. وفضلوا أن يتبعوا التقليد السائد الذي يعطي رؤساء القبائل الحق في اختيار القائد أو (الخليفة) والذي عادة ما يكون له أكبر النفوذ أو السلطة العائلية في النظام القبلي. وأصبح هؤلاء السنيون، أي: الذين اتبعوا طريق محمد ، واتبعوا التقليد السائد أو السنة.

إن تاريخ الشيعة في الماضي والحاضر يظهر لنا وضعهم كأقلية، هضمت حقوقهم من قبل مسلمي السنة الذين كانوا الغالبية العظمى؛ حيث تم اختيار أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الصديق المقرب ومستشار النبي كأول خليفة للمسلمين. وتم تجاهل علي لثلاث مرات بعد ذلك. وعندما أصبح الخليفة في نهاية الأمر قتل بعد سنوات قليلة من توليه منصب الخلافة. والأسوأ من ذلك، أن ابن علي >الحسين< ذا الشخصية القوية الذي قاد الثورة ليتولى هو الخلافة بدلًا من يزيد– قتِلَ في مذبحة وحشية هو وفريق من أتباعه في كربلاء (مدينة بالعراق).

ونتج عن فشل الشيعة في مساعيهم إلى تولي الأوضاع الجارية تحت الضغوط التي يمارسها عليهم السنيون، وذكرى استشهاد الحسين في كربلاء نظرة مستمرة من الإحساس بالظلم والحاجة إلى معارضة ذلك الظلم. وأصبح حلم الشيعيين منذ ذلك الوقت هو تحقيق نظام اجتماعي عادل. مما أعطى معنى، وهدفًا، وتنظيمًا للمجتمع الشيعي في القرن العشرين، وذلك عندما كافح الشيعيون في لبنان في السبعينيات والثمانينيات من أجل الحصول على الفرص الاجتماعية والاقتصادية، وأيضًا أثناء الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ حينما أخذ الشاه الإيراني دور يزيد وكان آية الله خوميني وأتباعه مثل الحسين وجماعته.

بالرغم من اشتراكهم في الإيمان بوحدانية الله، وبأن القرآن منزل من عند الله، وأن محمدًا هو النبي الذي أرسله الله، فلقد كان في تاريخ كل من السنة والشيعة قيادات مختلفة للشعوب. فبالنسبة للسنيين يعتبر الخليفة المسلم هو خليفة الرسول في البلاد، ويؤدي دوره كقائد سياسي وعسكري للمجتمع، ولكن ليس كنبي. ولكن الوضع مختلف بالنسبة للشيعة، فالإمام الشيعي أو(القائد) الذي يختاره أعضاء

المجتمع يجب أن يكون منحدرًا من آل بيت النبي؛ فهو ليس فقط القائد السياسي والعسكري للمجتمع ولكنه أيضًا القائد الديني. وبالرغم من عدم كونه نبيًا، فإنه يعتبر ملهمًا من الله، وأنه معصوم ومنزه عن الخطأ، وبأنه المنفذ لإرادة الله في الأرض كما تنص الشريعة الإسلامية.

ولدى كل من السنة والشيعة تفسيرات مختلفة للتاريخ. فالبنسبة للسنيين يعتبر نجاح وقوة الخليفة في التاريخ الإسلامي دليلا على عناية الله لهم، ومكافأة لهم على قوة إيمانهم، وتأكيدًا بأحقيتهم في الحكم. وعلى العكس من ذلك تمامًا، يرى الشيعيون الأحداث نفسها على أنها انتهاك غير مشروع للسلطة من قبل الحكام السنيين. ومع أنه كانت هناك أوقات من الاعتراضات والثورات التي تمكن خلالها الشيعيون من تولي الحكم، إلا أن الحكام السنيين سادوا في معظم أوقات التاريخ الإسلامي. وأصبح التاريخ بالنسبة للشيعة مسرحًا متواصلا من الكفاح بالنسبة لمجموعة من الأقلية المضطهدين والمحرومين من حقهم في تولي الخلافة، ولذلك عليهم مواصلة الكفاح لإعادة حكم الله في الأرض على يد إمامه المختار.

وبسبب الاختلاف حول عدد الخلفاء الشرعيين للرسول ووجوب الاعتراف بأحقية الإمام علي في الخلافة، انقسم الشيعيون إلى ثلاث طوائف فرعية: الزيدية أو (الخمسية)، والإسماعيلية أو (السبعية الذين يرأسهم اليوم أغا خان)، والاثنا عشرية، وهم أشهر الجماعات في الوقت الحاضر ويمثلون الأغلبية في بلدان مثل إيران، والعراق، والبحرين. وجماعة الاثنا عشرية الذين اختفى إمامهم الثاني عشر، أنشئوا معتقدًا لهذا الإمام المختبئ، وهو أنه سيعود في نهاية الزمان ليقيم مجتمعًا إسلاميًا عادلًا وصادقًا. وعلى عكس السُنيين أنشأ الاثنا عشريون تدرجًا للزعماء الدينيين يسمى آيات الله بمعنى (رمز الله) بسبب تقواهم وورعهم. ففي إيران يعتبر آية الله خوميني رمزًا للسلطة في إعادة الإسلام الشيعي. حيث ادعى خوميني أنه في غياب الإمام، فإن العلماء الذين يمثلون الشريعة الإسلامية لهم الحق بتولي الحكم.

إن دراسة التاريخ والتقاليد الماضية يعتبر مهمًا لمعرفة ما نحن فيه اليوم. فالتأثير المستمر لمسلمي الشيعة يمكن رؤيته في العديد من الأحداث السياسية المشحونة: مثل الدور القوي الذي يلعبه رجال الدين في إيران، والتأثير الإقليمي الذي تمارسه إيران على كل من العراق وأفغانستان، والحضور السياسي والنفوذ القوي لحركة أمل وحزب الله في البرلمان ومجلس الوزراء اللبناني، ودور حزب الله كتنظيم عسكري في الكفاح ضد إسرائيل، والحركة الطائفية والصراعات السياسية في العراق وباكستان. مما جعل السنيين من دول الخليج مثل الإمارات العربية المتحدة، وقطر، والكويت، والبحرين- يخشون التأثير الشيعي لإيران واستمرارها في بسط نفوذها على دول الخليج، في حين تسبب العلماء الوهابيون في السعودية وبعض الزعماء السلفيين بزيادة الصراع عن طريق دعوتهم للشيعيين بالملحدين، بل وطالبوا بقتلهم.

وقد عبر العديد من المسلمين عن خيبة أملهم تجاه عجز بلدانهم عن التوافق والتعاون، فعندما سئلوا عن أكثر ما يضايقهم من بلدانهم، ذكروا مصطلح "ضيق الأفق". ومن أجل فهم الإسلام والمسلمين اليوم، نحن بحاجة إلي أن نتجاوز التاريخ والنصوص لكي نعرف ما يؤمن به المسلمون عن أنفسهم وعالمهم والشئون العالمية.

ماذا يريد المسلمون اليوم؟

عندما سُئِلوا عما يعجبهم في الدين الإسلامي، أجاب ٧٥% من الأمريكيين قائلين إما: "لا شيء" أو: "لا أعرف" [٦٦]. لماذا؟!- يتفاعل معظمنا مع الجيران،

والأصدقاء والزملاء المسيحيين واليهود؛ بعضهم تتضح هويتهم الدينية والبعض الآخر لا، لكن بالنسبة للغالبية، فتأتي معرفتهم للمسلمين لا من التجربة المباشرة، بل من الصور الإعلامية التي تصدرت عناوين الأخبار أثناء تفجيرات ٩/١١، ومن الهجمات الإرهابية العالمية، فبالنسبة لنا، يبقى الدين الإسلامي وأغلب المسلمين "غرباء"، وقد قال لي أحد الأطباء الذين قابلتهم بالصدفة مؤخرًا: إن "المسلمين بحاجة إلى إصلاح أنفسهم؛ حتى يقول زعماؤهم للعالم: إن القرآن لا يأمر المسلمين بقتلنا". فهذا الطبيب، مثله مثل آخرين، يبقى "رهينة" للكلمات وأعمال التطرف ولنقص المعرفة الأساسية الضرورية لرؤية الوجه الإنساني للإسلام. ونتيجة لذلك، فإن حوالي ٢٢% ؛ أي: ما يقرب من ربع الأمريكيين، يقولون: إنهم لا يحبون أن يكون لهم جارًا مسلم[٦٩].

إن الاستماع مباشرة لما يقوله المسلمون حول العالم عن الغرب وعن أنفسهم بل وعالمهم- قد يبدد تلك المخاوف النمطية التي لا أساس لها. لكن، هل المسلمون متفائلون بشأن مستقبلهم؟ ما هي سلوكيات المسلمين مقارنة بالأمريكيين والأوروبيين؟ تظهر تلك التشابهات والاختلافات المدهشة من خلال استطلاعات الرأي. فمن جانب، نجد أن هناك ٩٤% من الأمريكيين يقولون: إن لحياتهم هدفًا مهمًا مقارنة بـ ٦٨% من الإندونيسيين الذين كانت الإجابة نفسها و٩١% من السعوديين.

وقد حدث الشيء نفسه عندما سُئلوا عما إذا كانوا متفائلين بشأن مستقبلهم: فأجاب ٨٦% من الأمريكيين بالإيجاب، إلى جانب ٦٩% من الفرنسيين و٣٦% من البولنديين. وعلى العكس، كان ٨٩% من السعوديين و٨٤% من الأردنيين أقرب للأمريكيين في تفاؤلهم في مقابل ٦٧% من الأتراك[٧٠].

جاءت إجابات المسلمين من خلال استطلاع رأي جالوب بشأن أهم أولوياتهم؛ لتظهر كيف أننا نفكر بطريقة واحدة، فآمال ومخاوف مليار مسلم تتجاوز الاختلافات الدينية والثقافية، وتكشف قيمنا ومواقفنا المشتركة، وكانت أهم أولويات أغلب المسلمين بحسب استطلاع الرأي كالتالي:

- تحسين أحوالهم الاقتصادية، وإيجاد فرص عمل وتحسين مستوى المعيشة من أجل مستقبل أفضل.
- تفعيل النظام والقانون وتعزيز المثل الديمقراطية، والقضاء على الحروب والصراعات المدنية، والتأكيد على احترام واستقلال بلادهم.
- القضاء على الأمية والجهل، وتحقيق المساواة بين الجنسين والعدالة الاجتماعية والحرية الدينية[٧١].

تعكس تلك الأولويات الرغبة في تغيير اجتماعي واقتصادي وسياسي ضخم في العالم الإسلامي، لكن هل سيتوافق الإسلام- الذي يمثل أهمية كبيرة للمسلمين- مع هذا التغيير؟

لا يمكن لأية مناقشات بشأن التغيير المستقبلي في الدول الإسلامية والعلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي- أن تغفل الأدوار العديدة المتصارعة للدين في السياسة والمجتمع، ويستند الحكام للدين من أجل الشرعية، بينما تسعى المعارضة لتحدي الأنظمة الاستبدادية، أما الحركات الإصلاحية الدينية فهي تعيد تفسير الدين من أجل الاستجابة للعالم اليوم، في حين تتشبث العديد من الجماعات المحافظة بالماضي. هكذا، يقاوم المسلمون من دعاة الحرية الاحتلال، بينما يشن المتطرفون حروبهم الإرهابية ضد العالمين الإسلامي والغربي على حد سواء.

نحن الآن نبحث في إعادة تأكيد دور الإسلام في السياسة والمجتمع الإسلامي، ناظرين إلى تأثيره والتأثيرات العالمية، وساعين إلى إجابة بعض

الأسئلة مثل: لماذا رفض معظم العالم الإسلامي سلوك الطريق العلماني من أجل التحديث والتطوير؟ ما هو الإسلام السياسي أو الأصولية الإسلامية؟ متى ولماذا ظهر التطرف الإسلامي في القرن العشرين؟ هل تمثل كافة الحركات الإسلامية تهديدًا؟

* * *